الانتصار

كرم صابر

قصص قصيرة



"الاِنْتِصَار"

قِصَصٌ قَصِيرَةٌ

كَرَمْ صَابِر

الانتصار

قصص

كرم صابر

الطبعة الأولى: ٢٠١١

دار اكتب للنشر والتوزيع

١٠ شارع عبد الهادى الطحان ، المرج الغربية

موبايل :٠١١٠٦٢٢١٠٣

E – mail : dar_oktob@gawab.com
Daroktob1@yahoo.com

المدير العام : يحيى هاشم

تصميم الغلاف: مصطفى نوبى

تدقيق لغوي :محمد علي

رقم الإيداع : ٢٠١١١٧٣٤٣

I.S.B.N:987-977-488-156-0

كرم صابر: أديب مصرى نشأ فى مدينة الوراق وقت أن كانت قرية يعمل أهلها بالزراعة قبل أن يدمجها الزحف العمرانى بالقاهرة ، وبدأ العمل بالمحاماة عام ١٩٨٩ ؛ نشر العديد من الأعمال السردية منها المتهم وأين الله ورائحة الأنوثة وعشق الحياة وفؤاد المدينة وطائر النسيان ومريم العذراء وكلاب السكك.

طبعة إليكترونية : ٢٠١٥

للحالمين بالأمل

والمُضحَّين لأجل سعادتنا

والسَّاعين للحبِّ

"الزّمن "

لم يتبقَّ سِوى عدة دقائق ونموت جميعًا ، لم يكن يهمُّ من يموت الأوّل ، أو يموت من أجل الآخرين ، الجميع سوف يموت ، لم يكن يهمُّ أن نتذكّر البدايات الأولى التى قذفتنا بالممر .

استطاعوا فى حيلةٍ تاريخية أن يسحبونا كالأغنام صفوفًا متراصّة بعد أن راوغونا ، أفهمونا أنَّ الممر هو الأمل الوحيد للبقاء ، بنوا الجسور والسّدود حول قلوبنا ، تركنا بلادنا ونساءنا وأولادنا ، وهاجرنا دون وعيٍ بالنَّهاية ، لم يكن يهم معانى الفراق وحزن البعاد ، تمكّنوا عبر التاريخ الطويل أن يحرمونا.

فى اليوم الأخير بعد أن تأكّدوا أنهّم سلبونا كلّ شىء ، نمنا منزوعى القوة ، أصبحت جثثنا رخوة ، لم تكن بأجسادنا عظام للوقوف على أقدامنا ، قرّروا إغلاق الممر ، لم يتبقَّ أىُّ بصيصٍ للنور ، لم تعد إلا روائحنا النتنة تخرج من كلّ اتجاه .

صرخنا كالعرس الصفراء ، وقعت أسناننا على الأرض ، سمعنا البلدوزر يهدم جدران الممر ، كانت اللحظة الفاصلة بين الحياة والموت تظهر كومضة ، لم يرها أحد لأنَّ الجميع فقد النظر .

انهار سقف الممر على جارتى ، سمعت صوت استغاثتها ، نظرت لعيون المجاورين لى فى المدافن ، لم يرنى أحد ، كان الدمار رهيبًا ، لم يحسّه أحد ، كنت أجرى وسط الجميع فاقد الإحساس ، أحاول الهروب من الهدم ، الجميع فقد معنى القدرة على النَّجاة .

لم أكن أدرى أنَّ المجرم ستأتى به الجرأة ؛ ليأتى إلى هنا ويشاهد جرائمه ، انتشرت كلابه تصرخ وتعضّ فينا لتخيفنا ، هرولنا زاحفين بقوة الدفع بعيدًا عن الأموات .

انحنى النَّاس للجدران التى تهدَّمت فوق رؤوسهم ، التصقوا بالحوائط خوفًا من عواء الكلاب ، حين ضغط أحد كلابه على مؤخرتى بخنجره انفجرت صارخًا ، حاولت أن أستغيث بالمجرم ليرحمنى ، نظرت لعيونه ، لم يكن بها أىُّ مشاعر ، كان كالحجر ، فأمسكت فأسى وهشَّمت رأسه .

"البطش "

جيويه الممتلئة بالأسلحة وعصابته التى تلتفٌّ حولـه تُفِقْدنا التوازن ، أشعل الخوف بمنطقتنا ، أرهبنا لننكمش بجلودنا ونختفى حين نسمع حكاياتـه أو نلمح ظلَّه، وهو يتسلّق الجدران ، ويحرق الزرع ويسرق المواشى ويخرّب الأرض ، من كان يستطيع أن يقابله دون أن ينحنى؟!

كانت أسرتى تمتلك عدة قراريط بجوار أرضـه التى اشتراها ، رفض جدَّى بيع الأرض ، فسرق المجرم زرعه وأُغرق برسيمه قبل أن ينبت ، رفض جدَّى رغم كلَّ ذلك أن يبيع ، يقابله فى السوق مع عصابته فيمسكه من ذقنه ، ويقول : "سوف أقلعها لك فى يومٍ ما" ، يلطعه أحد رجاله على قفاه بعد أن يأمروه بالمرور خانعًا امام المجرم .

خشى الجميع مقابلته ، يمكنه أن يبتر يديك دون أن تدرى .

حين نبت شاربى أصبحت مثل الحصان ، أخذنى النّسر أثناء نومى من تحت شجرة الجميز التى تُحيط بجامع الكفر إلى عالم الطيور الجارحة ، درَّبنى على فنون القتال ، سال الدّم من أنفى و فمى حين تذكرت رائحة الخوف ، نهرنى المدرَّب ، وقال : "يجب أن تدخل المعركة وأنت ميت" ، حين أذهلت ذاكرتى مرة واحدة فقدانها ، أمسكت بالسَّيف وطرت وسط النَّسور دون أجنحة ، عند نهاية البلدة قابلته ، قذفته بالسَّيف فطارت رقبته ، قبل أن أشاهد دمه على الأرض ، وجدت عشرات الرجال الملثَّمين يحيطون بى ، ويطلبون منَّى أن أصحو من النوم ؛ لأن "عنتر" المجرم سوف يمر .

أمسكت فأسى وجلست على الحدَّ الفاصل بين أرضنا وأرضه ، حاول الرَّجال الملثَّمون أن يُبعدونى ؛ لكنَّى أبيت .

اقترب "عنتر" منّى ورجاله يطالبوننى بالرّحيل ، شوَّقه رفضى إلى منازلتى ، فدعيته للموت ، قلت صارخًا فى وجهه : "لن تسير على قدميك مرة أخرى ، ستستكمل حياتك زاحفًا" ، صرخت فيه رافعاً سيفى : "وحدى سأجعلك تغادر البلدة مهزومًا كسيحًا" .

أخرجت النَّسر من داخلى ، طار وأمسك رقبته ، خلع عينه ، قطع لسانه وقدميه وأصابع يديه ، والبلدة كلها تصرخ فى النسر ليتوقف ، فصرخت فيهم ليفيقوا من النوم ، ويحتفلو بمقتل المجرم العاجز .

"الأعمى "

حين هاجت الدنيا ، أغرقت السيول البيوت والزرع ، خرجت النَّساء عرايا ، طافت جثث الأطفال الرّضع والشيوخ الذين أُزهقت أرواحهم بالحوارى المملوءة بالمياه.

الثّعابين والحيات تغوص بالطَّين ، وتلتهم الفئران والعصافير ، وتقذف بسمومها على جدران البيوت فتتهدَّم ، حوَّل السيل البلدة لمستنقعٍ من الدَّم .

لم يكن أحد يتصوّر أنّ "عمران" المريض بالسّل والكفيف ، والذى تملأ ملابسه الحشرات سوف ينجو من الطوفان ، يُشير لهم والمياه تصل لنصف بطنه بالمرور من الشوارع التى لم تغرق .

أمرهم صوته الأجشّ ، وهو يسمع خطواتهم بالتوقُّف والزحف للخروج سالمين من وسط البرك ، يلتقط الأطفال قبل غرقهم ، يرفعهم بقّوةٍ أذهلت الجميع ويلقيهم فى الأمان .

ازداد الطوفان ؛ والمياه هطلت من السماء وانفجرت من بطن الأرض دون أن يعرف أحدٌ وقت توقّفها ، نظر إلى قلوبهم وقال لهم : "الطوفان سيغرق المدينة ، أسرعوا حتى لا تموتوا غَرْقى" .

أطعمنا قِطع السّكر والملح من جيبه ، الجثث الطافية فوق الماء تتزيد والأشجار المقلوعة جعلت السّير مستحيلاً ، وحوّلت الشوارع لأحراش موحشة لم يشهدها النّاس أبدًا .

ملأت الخفافيش السّماء ، غطت أسطح البيوت الغارقة ، قال الناس وهم يموتون: "النجاة مستحيلة" ، كان الأمل معقودًا عليه ، فهو الذى ظل كتاب النّجاة مفتوحًا امامه رغم الظلام .

يرشدنا بعد أن يقلّب صفحاته ، والأهالى المكتوب على وجوههم "أعمى القلب والبصيرة" يبكون ، ويطلبون منه أن يقرأ بصوتٍ مرتفع ، يقلّب الصفحات قبل أن تغرق رؤوسهم بالمياه .

فجأة أظلمت الدنيا ، وغاب القمر من السّماء تحت وطأة الوحشة والخوف راودتنا صراخات متتالية ، كان صداها يتردّد فى آذاننا : "الأعمى هو الوحيد الذى يرى ببصيرته كلّ شىء"!

"البيوت الصّفيح "

جلست وسطهم مُحاطًا بالبهجة ، الأرواح البشرية تملأ المكان ضجيجاً وصخبًا ، الجميع يصرخ وكأنَّ هناك قوة عظمى خفية جعلت أرواحهم بهذا الجنون .

شربت خمس زجاجات بيرة وحدى ، أحضر صديقى الذى تعرَّفت عليه فى الشارع الخلفى كوبًا كبيرًا من الكحول ، وقال : "لا تخف إنها مغشوشة بخمرة" ، شربتها مرة واحدة ، البيوت الصفيح يخرج منها صقور وثعابين تُلقى بسمومٍ من فمها المفتوح على الحوارى الصغيرة والبشر ، الجميع يبتهج برذاذ السّموم ، وهى تهطل على رؤوسهم كأنها الأمطار ، يلتهمون نصيبهم بشبقٍ لم أتخيّل أبدًا أن أحسّه ، الفتيات الممتلآت أنوثة عاريات الصدور والأفخاذ تسرن أمامى بعد أن شربن الكؤوس الكثيرة من سموم الثعابين والصقور ، يمضغن اللبان لتنفجر أنوثتهنَّ .

قال صديقى حين لمح إحداهنَّ تنظر لى : "إنها تطلبك لا ترفضها ، حتَّى لا تنزل لعنة السماء علينا جميعًا!!"

اقتربت منِّى وأخلعتنى ملابسى وأمسكت قضيبى ووضعته فى فمها ، انفجر قبل أن يلمسها ، احتضنتنى وأنزلت فى قلبى السّكينة ، أرضعتنى بعض حليبها ، فانتصب عن آخره وسّط الحارة الضيقة ، السكان مبتهجين يتفرّجون علينا ، ويندهشون من تحول حيوانٍ مفترسٍ إلى جنسهم البشرىّ .

نازلتنى عدّة مرات لتفعص حقدى ، شربت كل السّم والشرّ منِّى ، قال صديقى الذى كان يشرب وحده الخمر المغشوش : "طهرّت روحك" .

طلبت كأسًا أخرى وأنا عارى الصدر ، أمسكت سكينًا كان بيد أحد الصبية وجرحت فخذى ، تهامس الجميع وصرخ آخرون ، والسعادة تملأ وجوههم ، ابتهج صديقى وعاص يديه بدمى ووضعه بفمه ، وقال : "أصبحت واحدًا منَّا" .

أخرج ليلاً معهم لأسرق البنوك والقصور الفخمة ، أُشْعِل الحرائق فى المبانى العالية ، أعود معهم للمدينة المظلمة لنضيئها ، نظلّ نشرب ونحتسى ما لذّ وطاب من الطعام والخمر ، فتخرج علينا الثعابين والصقور ، لتلقى بحبها فى قلوبنا ، نتشاجر على التهام رذاذهم ؛ ثم نعاشر بعضنا فى الشوارع علناً ، القسم الذى تعاهدت عليه بعد عدّة شهور عشت معهم كرفيق ، أن أجعل ليل ونهار هذه البلدة جحيمًا ، حتَّى تنهار المبانى ، وتتهشَّم الأبواب ، وتعود كلّ الحياة المسروقة للبشر فى مدينة الظّلام .

"الامتنان"

صحوت من النوم ليلة الأمس مُعدَّدًا على حالى ، قلت لنفسى : "يا خيبتك القوية .. يا حزنك يا ضياع عمرك على الفاضى" .

رغم ذلك اغتسلت ولبست حذائى ، خرجت من المنزل وأنا مستمرٌّ بالتعديد ، رغم الزَّحام الشديد بالباص إلا أنّ التعديد لازم روحى ، حين اقتربت من باب الشركة قلت لنفسى : "لن أدخل وأنا بهذه الحالة" ، رجعت إلى الميدان وجلست على المقهى المزدحم راغبًا فى إيقاف نغمة التعديد .. "يا خيبتك القوية يا خويا".

قلت لنفسى : "ما الذى حدث لتُبَكَّت نفسك وتكره حياتك؟!"

استعدت شريط الحياة منذ ميلادى وحتَّى اليوم وجدته مبهجًا ، كانت أمَّى سعيدة بميلادى وإرضاعى ، اغتبط أبى حين رآنى أمشى بجواره على قدمى ، حين تفوّقت بالمدرسة قام الجميع بتوزيع المشروبات والطعام على الجيران والأحبَّة ، عندما قررت الزَّواج من حبيبتى التى حلمت معى ببناء منزلٍ وأسرةٍ سعيدة غنَّى الأهل ، ورقصوا حتَّى الصباح .

أسعد أخواتى وأبناءهم رؤيتى ، كنت أحسُّ الغبطة فى عيون الجميع حين يطالعوا وجهى ، دائماً كانوا يفرحون ، يواسوننى فى الحزن ؛ لأخرج منه وأهوّن على نفسى ، ويشاركوننى الفرح ليسقونى رحيق الحياة .

طلبت حجرين معسل ، نظرت لساعتى ، كانت تدقُّ العاشرة ، قلت لنفسى : "ابتهج وافرح ، فلن يُحزْن ذلك أحد" .

جاءنى صوت أخى ، وهو يقول : "خفَّف عن نفسك إحنا وقفنا على رجلينا ، لا تتحمّل فوق طاقتك" ، كنت كالعصفور حين أمدّ يد المساعدة للجميع دون أن يشعروا بوجودى ، كنت أعلّمهم الطيران دون أن أطلب يومًا الشكر .

كانت أختى تقول : "أنت كل حاجة فى حياتنا ، ما تقلقش على نفسك ، أنت أجمل ما فى الدنيا إحنا مالناش حد غيرك" ، لم أكن أعرف ما الذى جعلنى أصحو من النّوم مُعدّدًا على نفسى ، قلت لنفسى : "كأنَّ شخصاً آخر الذى صحا من النوم هذا الصَّباح" .

حاسبت القهوجى ، وقلت لنفسى : "اذهب لعملك أنت سعيد" .

"رحيق الحياة"

حينما ركب الطائرة ملبيًا دعوتهم لحضور لقاء " التناقض والغرائب المختلطة "، تذكر الموانئ والعواصم التى وطأتها قدماه خلال العشرين عامًا الماضية ، شاهد البشر البشوشين الضّاحكين خلف التماثيل الضَّخمة بروما ، قهرته برودة بلاد الإنجليز المملوءة بالسّحب والمطر ، غنَّى مع الغوانى فى حانات لاجوس وأمستردام ، فى تونس ومراكش عاشر النَّساء الحوامل ، وتشبَّع بحيويتهنَّ المرعبة .. لا يستطيع أن ينسى سحر غابات الأمازون ، وفحوله وتدفّق نساء بورتو اليجرى .

نادى المضيف على الركاب ليخيفهم من الموت المتوقّع ، جهَّزوا أنفسهم للنجاة ، شرح باستفاضة كيفية ظهور الخطر ، وفقدان الأمانى والأهل .

حينما تذكَّر الأهل تذكَّر الحب الممزوج بالغيرة ، والتى حاول مررًا أن يغذِّيها بالأموال ، رغم النظرات القاسية التى أحزنته من أخواته بسبب استقلاليته .

آخر مرة تقابل معهم قالوا جميعًا : "الفضل يعود لنا ، ورث عن أمه وأبيه اللذين ماتا منذ خمس سنوات الأمل ، استمتع بالوقت القصير الذى كان يقضيه معهم" ، تذكّر أسرته التى استطاع توفير الأمان لها ، ولم يمتنُّوا أبدًا لذلك ، ظلّ عشر ساعات يتذكّر قصص الأهل والأصدقاء وزملاء العمل والمؤامرات التى أحاطت به وكادت أن تحطّمه.

سأل نفسه وهو ينزل درجات الطائرة لبلاد يزورها لأول مرة : "ألم تَحِن ساعة الرَّاحة ، والاستمتاع بالأولاد والأسرة وراحة البال فى حوارى بلادى؟ لكن إجراءات المغادرة أخرجته من ذكرياته ، حين دقَّ ختم الدخول على جواز سفره دخل للعالم الجديد ، استقلّ تاكسى من خارج المطار بعد أن سلَّم السائق العنوان ، استسلم لهواء البلاد الغريبة ، بحلق فى الغابات المنتشرة حول الطريق الطويل ؛ ليجد

نفسه فى النهاية فى بهو الفندق الذى سيُعقد به المؤتمر ، أنهى المنظّمون إجراءات الاستقبال والتسكين ؛ ليجد نفسه وحيدًا مرّةً ثانيةً بالغرفة .

عاملته عاملة الفندق برفقٍ وودّ ، لمحت بعيونه روح الغربة والترحال ، قالت: "سوف تستمتع معنا بأجمل أيام حياتك" ، حين ودعته بعد أن فتحت التكييف وأعادت له تشغيل الماء السّاخن ، وأضاءت النور أحسّ بوحشة ، أعادت له من جديد ذكريات الأهل والأصدقاء ، وسأل نفسه من جديد : "ألا يكفينى سفر؟"

صحا من النوّم مفزوعًا بعد ان قتل بأحلامه صديق ابنه ؛ لأنه تجرَّأ وركب دراجته دون أن يستأذنه ، قذفه بسكينٍ طويل ونشر الدّم بالحارة ، قال ابنه باكيًا ، وهو ينظر فى عيونه : "لماذا قتلته؟"

حاول ابعاد آثار الحلم عن نفسه ، دخل الحمّام ، حلق ذقنه ، لبس بدلته الزرقاء ، ومن تحتها ارتدى قميصه اللّبنى وكرفتته الكحلى ، نزل لمطعم الفندق الفخم ؛ ليتناول فطوره على أنغام موسيقى موزار المبهجة .

قابلته عاملة الفندق ، انحنت وابتسمت بلطفٍ ، وقالت : "استمتع بالألوان والأغانى ، والوجوه المبهرة والعاشقة للأمل" .

النَّهر حول الفندق يدعوه لتذكّر الماضي ، سأل نفسه : "هل يذكروننى الآن بكلمةٍ طيبة" ، ردَّ الموج البعيد عليه بضرورة النَّسيان .

أنهى طعامه ، دخل قاعة المؤتمر ، استقبله المنظَّمون ، تعرَّف على عشرات الوجوه ، انبهر من تنافسهم واتّساقهم رغم اختلاف لغاتهم وألوانهم ، بدأت الجلسة بموسيقى التّعاون لفهم التناقض المزدوج فى النّفوس البشرية .

أدهشه الهواء المبتلّ المنعش داخل القاعة ، الرَّجال والنَّساء المتَّشحون بالبِدل الكاملة ، والمرتدين الأقنعة الحقيقة يتناوبون فى التعرُّف على خبايا النفوس ، لكن صوت الرئيس المتحدَّث قال بفخامة : "أنتم خلاصة العالم والأمل ، يجب أن

تتفهّموا القيم المتناقضة ؛ لتُنْتِجُوا أفكارًا مبدعة لتتعايش أرواح الكائنات ، وتتجاوز الحب والكره والموت لنضمن للبشر النَّجاة" .

حين انتهت كلُّ كلمات الترحيب بالمؤتمر أحسَّ بالوحشة ، تذكّر حُلم الليلة الماضية ، لم يفهم لماذا قتل صديق ابنه ، قال لنفسه : "لم يمنعنِ قلب الولد الرقيق من الغدر ، حين خطف الدراجة وسار بوسط الحارة مفتخرًا بركوبها ، قذفته دون رحمةٍ لآخذ روحه ، أيَّة قسوةٍ استقبلت بها ابنك بعد القتل؟!!"

يسير وسّط الجموع الغفيرة ، لكنَّه لم ينفعل معهم ، حاول أن يندمج مرَّاتٍ كثيرة ، لكن صور الحزانى من الأهل والأصدقاء والزوجة ، وزملاء العمل لم تفارق قلبه .

سمع صوت موسيقى غريب وهو يغادر القاعة ، تُعلن نهاية اليوم ، تذكّر أذان المغرب بأيّام رمضان والحبّ يجمع أخواته وأمّه وأباه على الطبلية المملوءة بالطعام منتظرين جملة "أشهد أن لا إله إلا الله" ليلتهموا بأقصى سرعة أطيب الأطعمة والمشروبات ، متغلَّبين على الصَّبر الطويل ، والحرّ القائظ الذى جعلهم كالغرقى .

رغم ذلك شهدت الجلسة الختامية صراعات بين أجنحةٍ وخلجانٍ لا يتذكَّر منها سوى كلمات الضَّرائب والفساد والسوق الذى يدعمه الملك لينتج البشر الشفافية والمصداقية ليتغير المناخ ، جمعت القاعة الضباط والقضاة ورجال الأعمال والحقوقيين والقوادين والغوانى والرسّامين والعازفين والطّباخين ، ينظر من أعلى القاعة ، ويندهش من مئات البشر المجتمعين خلف الموائد والترابيزت يتناولون الطعام فى مجموعاتٍ صغيرة ، ويناقشون بلغاتٍ مختلفة كجماعةٍ واحدة ، سمع تعليقاتهم كأنهَّا صراخ وأنين لحوارى بلاده البعيدة ، لكنَّ كلمةً واحدة مازالت ترنُّ فى أذنه صرخ بها أحد الحاضرين فى وجه زميله :"اختلاف النظر بيننا واضحًا".

ركب السّيارة متجهًا لصخب المدينة ، فكّر فى القضايا التى طرحوها ، أخرج ورقة من حقيبته ورسم شجرةً كبيرة مقلوعة الجذور ترفرف أوراقها ، هطل المطر الغزير على جذعها ، العصافير تُرفرف على الأشجار خارج السيارة ويسمع غناءها ، حينما وصل لوسط المدينة أنزله السّائق ، وقال : "استمتع بحياتك ، ليس لنساء هذه المدينة مثيل فى العالم" .

المقاهى العربية فى المدينة الغريبة أشبه بالمناطق السحرية ، فوسط هذا البلاد التى تنتج كلّ شىء ، ويسقط المطر فى كل المواسم ، وتتسم وجوههم بفلطحة غريبة للأنف ، وتفتح عيونهم الضيقة حين يبتسمون بشكلٍ يجعلهم كالنسور ، وينحنى معظمهم حين يراك ويرفع يديه المضمومتين إلى صدره فى تقديرٍ واحترامٍ متناهٍ ، لتفقد قسوتك وتبتسم ، فجأة تجد نفسك وسط الوجوه والكلمات العربية المنتشرة حولك وسط المدينة ، كتبوا على معظم أبواب دكاكينها ومحلاتها بالعربية "مساج كامل" ، وعلى محلاّتٍ أخرى انتشرت كلمة "دقاق" ، قابلنى سائق منزوع المشاعر ، وقال بالعربية : "عايز مره بعشرين دولار" ، نظرت إليه باحتقارٍ ، وسرت باتجاه مقهىً كُتب أعلى مدخله "مقهى المصريين العرب" .

جلست قبالتى كأميرة ، ضحكت ونظرت ناحيتى بحنّية وعشقٍ لم ألمسهم فى حياتى ، قالت : "الأمر سهل لن يكلفّك الكثير" .

لم أناقشها فى الثمن ، سِرت وراءها دون أن أدرى اتجاهها ، أدخلتنى لحارسة الفندق ، قالت فى ثقة : "ادفع لها عشرة دولارات" ، سحبتنى من يدى بعد أن أخذت من العاملة مفتاحًا ذهبيًا ، دخلنا حجرة العشق الإلهى ، قالت بهدوء : "أنت مصرى ولاّ إيرانى؟" قلت لها : "مصرى" ، قالت : "لكن شكلك ليس كالمصريين!"

خلعت ملابسها كاملة ، وظهرت كملاك ، وقالت : "اخلع ملابسك إنَّك فى الحجرة المقدّسة" ، لم أكن أعلم أنَّ الحب يُدخل السَّعادة إلى القلوب إلا بعد أن

نـادت علـيَّ وهـى عاريـة علـى السـرير ، تحسستـها برقّـةٍ متناهيـة ، قالـت : "أنـت خائف؟"

قلت : "أنـت رقيقـة وآمـل ألا أخدشـك" ، تحسّست جسدى كلّـه ، مـلأت روحـى بالأمل ، أمسكت قضيبى الذى لم ينتصب ، وقالت لـه : "أنت طـائر الحب" ، أخذتـه فى حضنها وبكلَّ حنَّيـة الدنيا أدخلتـه فيهـا ، قالت بالعربيـة والإنجليزيـة : "طِر بـى لبلادكم الجميلة ، طِر ولا تخف من الموت ، أنا أهبك الحياة" .

خرَّ رحيق الحياة من فمها إلى قلبى ، سقتنى من إبريقها مـاء الحب حتَّى حوَّلتنى لحدائق من الزّهور تهوى السكينة ، أفقدتنى الذَّاكرة ، نسيت المكـان حتـى ظهر النهار ، قالت وهى تودَّعنى : أعطنى سيجارة ، أشعلتها ونظرت ناحيـة البـاب ، وقالـت : "ستذهب؟" قلـت : "نعـم" ، قالـت : "انتظـر لأحمّيـك" . دخلـت الحمَّـام ، طهرتنى ففقدت الأهل والأصدقاء والزّوجة والأبناء .

نشَّفت جسمى ، ألبستنى ملابسى كطفلٍ يوم العيد ، ودَّعتنى علـى بـاب الغرفـة ، وقالت : "أنت تستحقُّ الحياة" .

عـاد إلـى الفنـدق البعيـد سيرًا علـى قدميـه مبتهجًـا بأشجار الرمّـان المحيطـة بالشوارع ، استقبلته عاملة الفندق ، وقالت فى ثقةٍ وهـى تفتـح لـه بـاب المصعد : "استمتع ببلادنا" .

أغلق حجرته دون أن يخلع ملابسـه ، غطَّ بـالنوم ، وجد نفسـه وسط الشارع الذى قُتل فيه صديق ابنه والبشر تحيط بالجثَّة التى أصابتها سكينته ، يتهامسون فى صمتٍ على قدرته الفائقة فى الغدر ، قال وهو يشقُّ الصّفوف : "ابعدوا عنـه" ، ولحس الدَّم النـازف علـى الأرض بفمـه ، أمسـك بـروح الطفل الطـائرة ووضـع فمـه بجرح الطفل ليدخل الرّوح مرّة أخرى إلى جسده ، غذاها بالدم المملوء بفمه ؛ ليعيد للطفل المقتول روحه .

كان يسحب الروح والدّم من الأرض ويقذفهم بقلبه ليفيق ، كان نبض الطفل يتغذّى على رحيق الحياة الذى امتصَّها من عيون العاهرة التى عاشرها ، وقالت له بأمل : "تشبَّع برحيقى ، ابتهج يا ملاك " .

قام الولد مزهوًا بنفسه بعد أن عاد للحياة ، وأخذ دراجة ابنه أمام الجميع وركبها فى خُيلاء ، فنسى الجميع مشهد القتل ، ولم يعد فى ذاكراتهم إلا صورة الإله الذى يُعيد للبشر الميتين الحياة.

صباح هذا اليوم قرّر أن يغادر البلدة الغريبة ليذهب للأصدقاء والأهل والزوجة والأولاد وزملاء العمل ؛ ليحكى لهم الحكاية ويغفروا غدره ، ويفقدوا ذاكرة الكره .

نزل سلَّم الطائرة وهو عائد من الرحلة الطويلة ، استقبله الجميع كأرقّ مخلوق على وجه الأرض ، قالوا فى حبٍّ مذهل : "أنت تستحقّ الحياة" .

"الانتصار"

يخرجون طوابير متراصّة منذ الصباح ، يهجمون على السيارات ليركبوها غير عابئين بالمهانة ، ينتقلون هنا وهناك بين المزارع أو داخل العمارات العالية ، ينادى الناس عليهم : "يا عمّال التراحيل يا مهمَّشين يا حفاة يا عراة ، أحياناً كثيرة يشتمونهم ، لا يهمُّ كل ذلك ، المهم أنَّهم سعداء بعملهم وإنتاجهم ، وتناول رغيف الخبز وطبق الفول كل صباح ، يحزنون إذا مرض أحدهم ، ولم يستطع الخروج للبحث عن الرزق فى المزارع أو وراء البنائين ، أو تحت سقالات المبيضين والحدادين .

يكسبون قوت يومهم ويعمرون الدنيا . مع ذلك حين جاءت عربات المحافظة ؛ لتنظِّف الشوارع منهم وترصف الطرقات وضعت بدلاً من عدتهم أشجار الفل والورود لم يعترضوا ، أحسُّوا فقط بالهزيمة .

قال أكثرهم حزناً : "أين سنجلس ، ونعرض قوتنا ليأتى إلينا المقاولون والتجار ؛ ليأخذونا لنرفع الرمل والتراب ونحرث الأرض ونحصد المحصول ، أو نبيع المنتجات وسط الميادين؟!"

ردّ عليه المأمور المُحاط بالضبَّاط : "اقطعوا لسانه" ، وصرخ بصوتٍ آمر : "نظِّفوا الشوارع منهم!"

لم يتبقَّ فى المدينة سِوى البيوت المنمقة والنساء النظيفة ، لم يعد لهم مكان سِوى مقلبٍ بعيد للقمامة ، جلسوا بجواره ينتظرون الرزق والفرج.

كل هذه الأحداث مرّت عليهم دون أن يحزنوا ، أو يغيرَّوا مكانهم الذى خلقهم الله فيه ، دائمًا تلمح الحكمة تخرج من قلوبهم ؛ لتعلن لك فى صراحة بأنَّ العمل قيمة حياتهم الوحيدة .

انتشرت القطارات فى الهواء ، انبهر العالم بنقل الأخبار لقلوبهم دون وسائط ، وتحوَّلت المدينة إلى الآلات ، استغنت عن جهدهم ، انفجروا جوعى فى الشوارع ، قطعوا وصلات الكهرباء والتليفونات ، كسروا أبواب الشقق والشبابيك ، حرقوا المعابد والمحلات ، التفُّوا حول قسم الشرطة بعد أن قطعوا رقاب الضباط ، أفرجوا عن المساجين ، حطَّموا مآذن المساجد التى حرمتهم من الدخول ، انتشروا بالكنائس ليحرقوا الصلبان .

بكى أكثرهم حزناً من الفرح ، ومنع الضباط من ارتداء أقنعة جديدة ليعيدوا الكبت ، وقال لهم : "لم يعد لكم مكان ، هدمنا كلّ الحوائط ، لن يفصلنا عن السَّماء حواجز" ، وصرخوا ليحرقوا النُّجوم التى يضعها الضباط على أكتافهم ، داسوها بأقدامهم بعد أن أطلقوا النِّساء من الحجرات المغلقة للبراح .

"الانفجار"

وضعوا كراسى الحجرة الضيِّقة بأماكن محدَّدة وإتقانٍ فاق التصوُّر ، كرسى الأعمى بجوار الأطرش ، كرسى الأبكم بجوار الأعرج ، ظهر الجميع خلف الضوء عرايا دون ملابس ، جهّزوا عددًا معينًا من الأوراق والسُّطور والحروف لكلّ واحد فينا ..رغم ذلك لم يتمكَّن أحد من الحصول على حقَّه فى التذوق اوالبكاء .

قام الملقّن ، والملقنة بطريقتهم المبهرة بهدم الطرق التى أدخلتنا للمتاهة ، بدؤوا بكسر النفَّس ، انبهر الحضور وفوجئوا بالاستكانة تسيطر على قلوبهم ، قال الملقَّن مهددًا : "سوف نحاكمكم كلصوص وأنتم منزوعو المشاعر والسّند" .

نظر الحضور مندهشين للملقنة فأكّدت على تهديده ، وقالت : "لن نخلعكم الملابس فى الميادين وأماكن العمل والسَّكن ، إلا إذا رفضتم الالتزام اوالخنوع" ، تبوَّلوا على أنفسهم فملأت رائحة الصنن الحجرة ، فقالت الملقنة ضاحكة : "لن نفضحكم طالما ظلَّت جبهاكم منحنية تحلم بتقبيل أقدامنا!"

صرخ صوتٌ غريب من بعيد ليعدم كرامة الحاضرين : "ستنامون ليلاً أمام منازلنا عرايا لنرضى عنكم ، سوف نتبول عليكم وأنتم فخورون بعظمتنا" ، أنهى حديثه بالحِكمة فى أهمَّية التوقعات المزَّيفة التى نقوم بإعدادها وإرسالها لهم ، قالت الملقَّنة ، وهى تنظر نحو عيوننا: سوف نضغط على أرواحكم لتبيعوها فى الأسواق ، ولن تجدوا أحدًا يشتريها ، وقتها نمنحكم القبول كالكلاب ونتركمكم تنبحون" .

أتى صوت زميلها ؛ ليطمئنَّ على نكراننا الأهل والولدان والزوجة والأصدقاء لأننا أولاد زوانى أبًا عن جد ، طلب الحاضرون منه بتوسُّل ان يخرجهم من المتاهة ، صرخ أحد الحاضرين كأنّه اكتشف السرّ : "عيونكم هى الأمل والمستقبل ، منحتكم هي النعيم الذى كنَّا نحلم به ، لا تذكرونا بشرفنا فنحن فقدنا الذاكرة" ، تحوَّل الحاضرون لكلابٍ نجسة منزوعة المشاعر، قالت المرأة الجالسة بجوارى ،

بعد أن دارت بالمتاهة : "الحقوق الكاملة لكم ، يجب أن تنزعوا منَّا الضمير لننسى أننّا بشر ، عوَّدونا على الحرمان حتى نعتاد الحزن ونعشقه" ، هتف الملقن يعلن نجاحه وأعطى للمرأة علبة شيكولاتة على تجاوزها الأمل .

صرخت الملقنة معترضة : "لم يحن الوقت للفرح والبهجة بنجاحكم فى الفشل ، لم نرضَ عنكم ؛ لتضحكوا وتندهشوا من نجاح أحد الحالات لتجاوزها عنق الحجرة ، والانطلاق خلفنا ككلبةٍ لطيفة ، يمكنها أن تكون العين الحارسة على أموالنا فى بلادكم ؛ لأنها لم توضّح لنا كيف يمكنها أن تظل تسرق النّاس وتتفادى الغربة؟!"

قال أحد الحاضرين متحّدثًا لغةً غريبةً لم أفهم حروفها بعد أن نظر لعيون الحاضرين وقلوب الملقنين ، ووجدهم مغتبطين بالجهل ونجاح التجربة : "إنَّ طريقى فى الحياة المملَّة جعلنى أزحف على بطنى لأنال رضاكم ، ليضع رئيسكم وأصغر واحد فيكم أصابعه بمؤخرتى ، وأقسم فى لغة مفهومة للجميع بأنَّه سيقوم كل ثانية بالإبلاغ الجيد عن لون عيون ابنه وكلوت زوجته ، وهتف فى فخرٍ : "قلبى أصبح حجرًا ودمى أصبح ماءًا ، فنظرنا مندهشين مذهولين من القوة التى حوّلت الأرانب لأسود ، فهتف الملقّن : "اعدموا كلَّ الطرق التى تُعيدكم إلى الماضى ، اعلموا أنكّم أبناء زِنى ، ونحن نتبنَّاكم كلقطاء بعد أن تمرمغتم فى حوارى بلادكم باحثين عن الخبز ، فوهبناكم الحياة المقيدة بالسلاسل، لتظلَّ رؤوسكم محنية للأرض حتى الموت" .

ظهرت سحابة بيضاء ناصعة فوق الجميع بالغرفة ، تاه الحضور ودخلوا بعمقٍ فى الدوائر المحكمة ، وتصوَّروا أنفسهم ثعابين مفترسة تدهسها أقدام السادة المدللّين ، طارت الملقنة مع السّحابة فوق الجميع ، فظهر فخذاها الطريان ، وصدرها العارى ، وشعرها الأشقر ؛ لتخيف الجميع بقوتها .

أطاحت بالأوراق التى سجّلها الحاضرون ، وقالت : "يجب أن تعيشو فى بلادكم دون هوية ، ضعوا خلاصة دروسنا فى عيونكم ، راقبوا النّاس فى الطرقات ، اكتبوا فى الجرائد ووسائل الإعلام عن حكمة الذل التى "علمناكم إيّاها" .

وضعتنا جميعًا فى حذائها بحرفة أذهلتنا ، وقالت : "سوف أدوس عليكم كلّما صحوت من النوم" ، وسألت : "هل يعترض أحد؟" فحلَّ الصمت وأنخرس الجميع .

حين هبطت إلى الأرض أعادتنا من حذائها ، قالت : "من أنتم؟" قلنا بصوتٍ جماعىّ : نحن خونة كلَّ العصور" ، قالت : "لماذا جئتم إلى هنا؟" قلنا : "لننال رضاكم وأموالكم واحتقاركم" ، قالت بفخرٍ : "أنتم زبالة الدُّنيا يجب أن يظلَّل عهركم النَّاس فى المزارع والمصانع والميادين ؛ ليعيشوا أسرى البغض والحرمان" .

قال الملقن : يجب أن تخابرونا دائمًا فى كلَّ كبيرةٍ وصغيرة ، إنَّ أدقَّ التفاصيل تهمنا ، لون الشرابات ، المشروبات الباردة والسَّاخنة التى يشربها البشر ، وقت التشفَّى ، همس الأحبة على محطّات القطار ، لون الرياح والسَّماء فى الفصول الأربعة ، لا يجب أن يفوتكم شىء" .

"قيسوا بحكمةٍ معنى التغيير ، آمنوا بأنَّ الأمان هو النظام والاستقرار ، إنَّ حجمكم لدينا فى الانحطاط يُظهر قدرتكم فى السَّعى نحو إلحاق الآخرين بالمتاهة، إنَّ عيونكم وخطابكم اليومىّ المتكرر هى الوثيقة الداعمة لموقفكم فى تبنَّى الخيانة كطريقٍ وحيد للمستقبل" .

قال أحد المتدرَّبين : كيف يمكن مقارنة الأمل بالانحطاط؟! ردت الملقَّنة بكلَّ ثقة : "عندما نقارن يعنى الاختيار ، وأنتم لا خِيار أمامكم" .

"إنَّ احترام دوائرنا وانخراطكم فى الظُّهور اليومىّ ؛ لتشغلوا النّاس وتنفَّسوا عنهم هو الأمل الوحيد لديكم ، لتنالوا أموالنا وشفقة وشفقتنا" .

صوت الملقنة وهو ينطق الحروف بطلاقة يذكّرنى بالمفقودين فى حوارينا ، تنادى علينا مثل ما كان ينادى ميكرفون الجامع على الأموات ، فتؤكّد مع كلّ حرفٍ تنطقه صراخ المساجد لصلاة الجنازة "تُوفِّى إلى رحمة الله المجتمعين الآملين بالعمل في حقوق الإنسان" .

قال الملقّن : "إذا نزلتم الميدان وسط الناس يجب أن تعلّقوا شارتنا فوق مؤخرتكم ؛ ليعرف النَّاس أنَّ مفكريهم ضاجعهم الأسياد" ، وأنهى مداخلاته : "يجب أظهار شارتنا واضحة بألوانها الفضّية المائلة للاصفرار ، أَظْهروا سلاسلنا الذهبية فى كلّ حوار لتبهروا البشر" .

سحبوا بهدوءٍ أرواحنا ، وذهبوا بها لمعاملهم فى المدينة الغريبة ، مزّقوا الملابس التى كنا نرتديها ، عاصوها خراء كى تظلّ رائحتنا نتنة ، رفعت الملقّنة صوتها وكسرت المبتدأ ورفعت الخبر ونصبت على الجميع ، وقالت بفخرٍ : "إنَّ كتابة التقارير هو ضمانكم الوحيد للنجاة".

اطمأنَّ الملقن إلى دخولنا جميعًا المتاهة ، فأعلن انتهاء التدريب وصرف الحاضرين إلى منازلهم وأعمالهم ، كان على يقينٍ بأنّنا سوف نسلب الحبّ وننشر الضغينة والفتنة بين الناس ؛ ليظلَّ الملقن وأحفاده وأسياده فوق الجميع.

قبل أن نخرج من الحجرة بعد تأكّدوهم من تخيلاتنا ودوائرنا التى صنعوها بإتقانٍ ؛ لنغيب نحن واهالينا عن الوعى ويستمرُّوا هم فى النهب ، احتفلوا بالنتائج المبهرة وأعطوا لكل واحدٍ منا رقمًا ، قال الملقن فى ثقة : "إنَّ الأرقام هى الاكتشاف العبقرى لتعظيم النتائج وخلط المشاعر وفصلها دون اراقة دماء" .

انطلق الجميع خانعين فى دوائر متينة ، قالوا فى انبهارٍ : "نحن كأسنان الترس لا يجب أن نبطئ أبداً ، أو نتوقف حتى يدور العالم ، ويفرم الحالمين ليعم الاستقرار" .

خرجوا فـى صفوفٍ مستقيمة ، وتخيَّلـوا أنَّهـا الـدوائر سـاروا نحـو الميـادين ينشرون دعوتهم ، ظلَّوا سنينًا ينشرون البِغاء .

كوَّنـوا دوائـر هُلاميـة ودخلنـا فيهـا جميعًـا ، وكتبـوا علـى مـداخلها : "الخيانـة المرتدة أمل الجميـع"، وانطلقو فـى الشوارع ينقلون الخبرات ، وقسَّموا النَّـاس فـى المزارع والمصانـع ؛ لينتجوا الخير الوفير ويتعوَّدوا على الحرمان منه.

"إيمـان" البنـت الوحيدة التـى لـم تجاريهم ، حاولـت الانـدماج وفشلت ، كـان قلبها المملوء بالعشق يعطيها القوة على تحدَّيهم ، بهرهم صوتها وهى تغنى وتقول : "سأغرِّد وحدى خـارج السَّرب" ، أدهشـت الجميـع وهـى تـدهس أوراقهـم وتمـزِّق ملابسـهم ، ، قـال أحـدنا بـدناءة : "لا تتطـاولى علـى اسياد العـالم" ، بصـقت فـى وجهه ، وأمسكت فمه برفق ، وأخرجت لسانه وقطعته بمفتاحها الفضَّى ، خرَّ الـدم على أرضية الحجرة ، وهاج المتدرِّبون ، رفعت المفتاح بمهارةٍ فائقة وفقأت عينـه .

فى لحظةٍ لم يتوقَّعها أحد ، شاهدوا الضَّحايار يصرخون ، قال الملقنَّ بحسرة : "يحتاج الحبُّ دائما للفوضى ، القهر وحده هو من يبحث عن معايير" .

أسقطت السَّماء خارج الحجرة كتل الرصاص لتحرق الفندق العالى ، نظر المتدرِّبون والملقَّنون خارج الحجرة ، فشاهدوا رؤوس البشر المرفوعة تملأ الشوارع وتتسلَّق الأسوار وتبطش بالخونـة ، انجرف السّيل نحو حجرة التدريب بعد انهيار المتاريس، دهست كتل الرصاص قلوب الغادرين خارج الحجرة .

حاول أحد المتدرِّبين إمساك شعر "إيمان" ، فطارت فوقنا بعد أن قطعت يديه ، وقالـت بثقـة : "أيُّهـا الخونــة لـن تخرجـوا سـالمين" ، حاولـت الملقَّنــة اللعـوب أن تسـتميلها ، توسَّـلتها لتفـتح البـاب وتغـادر آمنــة ، لكـن "إيمـان" قطعـت أذنيهـا الجميلتين ، وداست على أقراطها الذهبية .

ارتفعت أصوات البشر خارج الحجرة مبتهجين بالنهار ، سمعت انفجاراتٍ عديدةٍ فى البلاد ، أدخلت الرُّعب فى قلوب السّادة .

ربط النـاس السـادة وأذنـابهم مـن الملقَّنـين والمتـدرَّبين فـى سلاسـل حديديـة ، وجرُّوهم نحو الميدان عرايا ، قال البشر المحرومـون : "نحـن الأبطـال المنتصرون لـن نحـرقهم ونزيـل آلامهـم ، سنجعلهم أحيـاء يتحسَّرون علـى روائـح عطرنـا ، لـن نـزيلهم من الوجـود ، سنجعلهم أسرى وعلامـةً علـى نجـاح المطحـونين فـى اعتلاء السَّماء وتوزيع العدل" .

هطلت السَّماء برحيق الحب ، انتشرت الأشجار الوارفة مستمتعة برذاذ المطر ، خرج الأولاد الصَّغار مُنتَشين بالبرد والطين ، جرُّوا كل البراءة لأسرتهم الصغيرة ، خلطوها برحيق الحيـاة ، ليـنعم كـل البشر فـى النَّهايـة بالراحـة والاستمتاع بمبـاهج الحياة .

"الهُروب "

رددت صرختـه "اقتلـه كـى نعيش" وقفزت من سريرى ، دخلت الحمَّام ولبست ملابسى وخرجت للشارع ، شاهدته ورائـى ، منـذ ليلـة الأمس لم تغفل عينـه ، مـع ذلك كان ينتظرنى أمام الباب .

حين ركبت الباص وجدته ينظر لى ويضحك ، كان الزَّحام شديدًا ، ظلَّ يقترب منَّى حتّى التصق بمؤخَّرتى ، نزلت من الباص قبل المحطة وأنا مضطرب.

كنـت متأكـدًا أنَّـه لـم يرنـى ، جلسـت علـى الرصيف وجدتـه بجوارى يضـحك ، ويقول : "هتروح منَّى فين!"

نظرت فى عينيه كان جميلاً ، طلب مرافقتى دون إيذاء ، فهو لم يتعوَّد على إمساك آلاتٍ حادة ، أو مقابض للأذى .

قلت لـه : "مـن أنـت ، ومـاذا تريـد؟" قـال : "لا تخـف أنـا مكلَّف مـنهم بمراقبتـك وكتابة التقـارير عنـك ، لـن يؤذيـك أحد ، فنحن نريـد أن نفهم مـاذا تفعل كلَّ يـوم؟ وكيف تستطيع مواجهة العجز وتستمر؟!"

قلت : "من أنتم؟"

طـار مـن أمـامى وجلـس بـالقرب مـن المحطـة ، وقـال بصـوتٍ عـالٍ : "نحـن أصدقاؤك" .

فى هذا اليوم قرّرت ألاّ أذهب لعملـى ، وأن أختفـى منـه ، أشرت لتاكسى قديم وركبت ، قلت : "خذنى للمدينة البعيدة" .

نزلـت بمنتصف الطريـق الطويـل ، بعد أن أعطيـت للسـائق أجرتـه ونظـر لـى مرتبكاً وقال : "لم نصل للمدينة بعد!"

أغلقت الباب ونزلت من على الطريق الدَّائرى لأشمَّ هواء الحقول ، بالقرب من شجرة توت وارفة جلست ، لفحنى الهواء النَّظيف فنمت ، وجدت نفسى راكبًا سيارة كبيرة أخذتنى إلى مدينةٍ غريبة لم أرها من قبل ، شوارعها واسعة مزروعة بالياسمين ، سرت وسطها دون أن يعترض طريقي أحد ، المنازل رقيقة تحيطها الحدائق ، النِّساء المغتسلة المبهجة تنظر من شبابيكها ، تنادى علىّ لكنَّ السيارة المسرعة التي ركبتها تحاول الطيران ، أَصرُخ بالسائق ليخرج من تلك الشوارع أو يتوقف ، فوجئت بأطفالٍ مُسلّحين ، مشقوقى الأنف والفم يقفون أمام السيارة ويُنزلونى منها ، اقترب منَّى الضابط الذى يأمرهم ، رأيته بكامل هيأته مرةً ثانيةً ، قال : "لماذا تحاول الهروب ، ألم أقل لك لن نؤذيك؟!"

قلت له : "من أنتم؟ ماذا تريدون؟"

لم يرد ، وقال للصَّبية : "أنزلوه للممر وافتحوا عينيه ، وسوف تكتشفون سرَّ إصراره " .

أخذونى لحجرة عمليات كبيرة ، وضعونى وسط فريق من الأطباء والطبيبات الجميلات ، كتَّفونى على سريرٍ صغير ، جرَّدونى من ملابسى ، بحثوا فى كلَّ أعضائى عن السر الذى يعتقدون أننَّى أَخفيه ، كنت أسمعهم وهم يردّدون : "لم نعثر عليه فى القلب والكبد والمخ والعين والأنف والفم والكلية ، بحثنا بحرفة فى مؤخرَّته وقضيبه ، لم نتلمَّس أثرها ، شرَّحناه مئات المرات ولم نعثر علي شئ!"

"المنبوذ "

بعد أن تغيَّر شكل البلدة قال لنفسه : "حرمونى الحياة ، ماذا أفعل ، وكيف أكسب قوتى؟"

الحجرة الوحيدة التى تركوها مملوءة ببقايا المخلفَّات القديمة لأزمنةٍ مضت ، نام على هذه المخلفات الأجداد والأحفاد ، تبوَّل عليها الجميع ، حين أصبحت دون قيمةٍ تركوه بغرفة الماضى لينام عليها .

جلس شهورًا يفكَّر ويتدبر إطعام نفسه ، يتلصَّص أمام منزلهم ويبرك على أكياس الزبالة التى تركوها يلتهم بقايا الخبز وعظام الدجاج ، كلَّما لمح طيف أحد الناس يقترب منه يجرى بعيدًا ، يشمئزُّ الناس من ظهوره ، اعتبروه فأل شرًّ وحزنٍ على البيت الذى يزور قمامته .

يقذفه الأولاد بالطوب ، ويجرون وراءه حتى يُخرجوه من شوارع البلدة ، أفهموهم آباءهم أنَّه لا يجب أن يعيش معهم حتَّى لا يلوِّث سمعتهم ، بعد سنين طويلة وهو ملقى بحجرته ، لمح إحدى النِّساء تدق بابه وتطلب منه أن يقتلها ؛ لأنهَّا لم تعد تتحَّمل الحياة ، علَّمها أن الاستمتاع بالحياة لا يحتاج لكلَّ هذه الحِيل التى يبتدعها الأهل، فالهواء والأرض والماء ملكنا جميعًا ، تعرَّت المرأة ليظهر قهر المدينة على جسدها ، لم تعرف كيف شفاها المنبوذ ، وخرجت من حجرته سعيدة مبتهجة منطلقة نحو الحياة .

فى اليوم التالى زاره أحد الشباب بعد أن قطَّع جسده ، وأدخل الشرَّ بتهوره إلى شريانه والجزء الأسفل من قلبه ، جلس معه خمسة أيامٍ متصلة ، أكلا وشربا وناما وتنفَّسا بحريةٍ دون أن يقهرهم أحد ، فى اليوم الأخير قفز المنبوذ إلى قلبه وهو نائم ، بمشرطه المُخفى فى دمه ، أخرج الحقد ، وصحا الشاب فخورًا بإنسانيته ، وغادر حجرة المنبوذ ليقتحم الحياة .

أصبح من المعتاد أن يستقبل المنبوذ بحجرته الشيوخ والنِّساء والشباب ، دون أن يشم أحد الروائح الكريهة.

وفي يومٍ صحا المنبوذ ليفاجأ بأهل البلدة يحيطون حجرته يطلبون الصَّفح والمغفرة ليعيشوا بأمان ، لكنَّ المنبوذ الوحيد الذى كان يعلم سرَّ الرائحة التى أحضرتهم إلى حجرته ، اختفى عدَّة أيام ، صرخوا : "اغفر لنا .. ارضَ عنا .. اظهر علينا بطلعتك البهية" .

بعد أيام طويلة خرج عاريًا ممسكًا شعلته التى كانت تُنير ظلامه ، ألقى بها على حجرته المملوءة بركام السنين ليحرق الماضى الذى يذكِّرهم بخطاياهم ، وسار بالشعلة نحو المدينة النظيفة والبيوت المملوءة بالورود والحدائق ، سار البشر الذين ضاقت صدورهم وقلوبهم وراءه ؛ ليلقوا نارهم على القصور ويخلعوا الجدران .

كانت أصوات حرائقهم تهزُّ أرجاء البلاد ، وهم يهتفون لبائع الحياة بالخلود.

"المتاهة "

آلاف الطرق المستطيلة والدائرية الملتفّة داخل حجرات البيوت وحول رقاب العباد تمُّ حبكها على مرِّ السنين ببراعة، جيل وراء جيل تخصَّص فى نقل الخداع.

أخذونا من المزارع ، وقالوا : "أنتم خير الأرض وجندها ، سنعمَّر بكم الحياة ، لا تخافوا ولا تهتموًّا بحلِّ ألغازنا" .

استخدموا الشعراء والآلات الموسيقية كى ننام آمنين ، فى الأيام الأولى أحضروا النِّساء الفواحش التى كانت تنام معنا دون ملابس داخلية ، حينما كانت أيادى النِّساء الفواحش تحتضن ذكورنا وننتفض من النشوة ، كانوا يلفوُّن الخيوط حول رقابنا ، آلاف القيود والعقد والدوائر البلاستيكية والحديدية التفَّت حولنا ، حين نتذكَّر المزارع كان صوت المغنَّى التائه يرتفع مبشرًا بالمستقبل الجميل والحاضر المنعش .

عرف أنبلهم معانى خيوط المشاعر التى جعلتنا أحياء حتَّى اليوم ، استقبلنا فى الصَّباح مغردًا لينسينا همومنا وماضينا ، نظلُّ نعمل دون كللٍ فى مدافنه ، والتى يؤكَّد كل يومٍ على أنهَّا الجنة ، كان مبهرًا وهو يمتطينا جميعًا ، كنز ثروة لم يعرف أحد حجمها .

اشترى عقول آلاف الناس لتنفيذ خُطَّته فى حبك الخيوط ، عقد مئات المؤتمرات وآلاف الورش كى يروِّج لخطَّته الدائرية الرائعة ، علَّمنا التواصل عبر الشكاوى، بطَّط على قلوبنا ، أصبحنا كالأرانب لا نرى أبعد من نهاية الحجرة ، نسأله فى انبهارٍ : "كيف أبدعت خُطَّتك البريئة ؛ لتحيطنا بتلك القيود الوهمية التى لن نتمكنَّ أبدًا من حل طلاسمها؟"!

ينادى علينا من بعيدٍ دون أن نراه ، كى نستمر فى الفقس والبيض والدوران ، كنا نجتمع مع الحيوانات الأخرى التى تعمل فى كل المجالات لننتج الطعام دون أن نتذوقه ، ونتساءل بدهشة : "من أدخلنا تلك المتاهة؟!"

ظلَّ الأرنب العجوز صامتاً رغم مرور الزمن والتخطيط على جثته ، احتفظ بشعاع عيونه ناضرًا ؛ليرينا ما بداخلنا ، كانت نظرة واحدة منه كفيلة بتذكّر كل الحكاية ، لكنَّه عجز عن حلّ طلاسم المتاهة التى استطاع النبيل أن يدخلنا فيها .

اخفي كلابه الملثمون المعلومات علينا ، قالوا فى تحدٍ بعد أن نظروا لعيوننا ليُخِيفُونَنا : "استمرُّوا فى الدوران فليس هناك مفر ، التروس جاهزة لفرم الجثث المتوقَّفة" .

استعرضوا التاريخ الطويل والفشل الذي مُنِى بها أجدادنا ، كانوا غاضبين من الكسالى ، نصحوا الجميع بالعمل فى صمتٍ لبلوغ النجاة .

فى اليوم الأخير ، قرَّر الأرنب العجوز أن يُلقى بظلّ عيونه المشعَّة فى قلوبنا ، كان التحدَّى كبيرًا ، هل يمكن أن يفك طلاسم اللغز ؟ نظر مرة واحدة من فوق ربوة عالية علينا فشفانا جميعاً ، اختفت السجون والقلاع ، فُوجئنا بالحدائق الواسعة والبراح المنتشر ، لم يتحمّل كلاب النبيل وعلماؤه المخطَّطون صِدق المشاعر وعيون الأرانب العجائز ، فتلاشت قيودهم للأبد .

"الحفلة "

أربعون امرأة ومائتا رجل أغلبهم فى منتصف العمر تزينَّوا لمقابلة الأمير ، استقبلهم مدير أعماله ، بعد أن أعطى أوامره للنادلين الذين حضروا من أفخم فندق بالمدينة ان يعزفو الموسيقى ويفتحو البوفية .

كنت الوحيد الذى أتى متأخرًا ، لم يكن يهتمُّ بوجودى أحد ، الجميع منشغل بعقد الصفقات وتبادل الخبرات ؛ لاكتساب مساحاتٍ جديدة فى عالم البطش .

أعاقت اللغات المختلفة سماعى تفاصيل الاتفاقيات وعروض نماذج الفُجر ، عيون الجميع تحكى عمَّا يجيش بداخلهم لتتفهم دوافع الشر ، العيون الملوَّنة تذكر بفخر أنَّهم تمكنَّوا من تسلُّق الجبال ورشق الناس بالحجارة ليسرقوا أرواحهم ، الآخرون ذكروا تجاربهم فى خلب القلوب والعقول، العيون المذهولة وسط أحد التجمعات جعلت الصَّمت يدوم لمدة ثوانٍ ، ثم استعادوا التحدَّى لمواجهة الموت ليحصلوا على مساحات الغلَّ الجديدة التى أتاحها الأمير.

سِرت بعيدًا أتفرَّج على النادلين وهم يرتبون أنفسهم فى صفوفٍ عارضين أجود أنواع الخمور والعصائر والفطائر المحشوة بالتونة والخمر والشيكولاتة .

جلس الأمير مع الحناكيش مغتبطًا ، يأتون له بعيونٍ راغبة فى المرمغة فى تراب القصر ، يبتهج ويعطيهم البركة ، ضحك عن آخره حين انحنى أحد الحناكيش على قدميه كى يغفر له ، ويبرَّئه من سرقة الدب الفضى لأنَّها كانت هدية القصر ، ولا يجب أن يُدان حناكيش القصر لأنهم مشمولون برعاية الأمير .

قال الأمير بعد فاصل الضّحك : "أنت ظريف يا بلبل لك الفضة والعفو ، تحسَّس مؤخرته ، فوجدها طرية كلحم الديوك الذى يحبه" .

خرجت مسرعاً نحو بلكونة السّاحة الكبيرة المزَّينة بالسجاجيد العجمى والدمنهورى والتى رسم عليها الفنانون الأسود والنمور والأحصنة ، وهم يتصارعون وصورة الملك فوق الجميع تطالبهم باستمرار المجزرة .

ارتفع صوت الموسيقى الصاخبة ، تمايل الجميع بعد ان تناولو مئات الكؤوس من الخمور ، أعلن العازف الغارق فى الأحلام بدء نهاية الحفلة ، الجميع يرفع صوته ولا أحد يسمع ، لكن لغة العيون واللمس تدفعهم جميعاً نحو اكتساح المساحات فى البلاد البعيدة ليقهروا المحيطين بهم بخبراتهم الجبارة ، ويعرضوا قصص النجاح فى وضع القيود حول رقاب العباد ، فساروا خلفهم دون السؤال عن المصير .

مع ارتفاع الصَّخب تحدَّث الجميع بثقةٍ عن القدرة الفائقة فى اجتذاب الطيور للأشجار ، وجعلهم يغرِّدون بنفس اللغة والطريقة ، أكدَّوا أسرهم داخل المتاهة دون تمرُّدٍ أو حزن ، التفتّ بعيدًا ناحية مياه النهر كانت النِّساء حول الشاطئ تتزيَّن بأجمل الثياب والألوان ، مشهد صدورهم النَّافرة يدلّل على إبداع طرقٍ مبهرةٍ فى عالم النَّشوة ، أشعلت روائح العطور المزهرة والملابس الضيقة القصيرة ذاكرة الحب ، نظرت لهنَّ وهنَّ يتمايلن بدهشة لتنافسهنَّ على مائتى رجل ، ليذهلونهنَّ ويسكرونهنَّ ويأخذونهنَّ لدقائق خارج الحفلة ، لكنَّ الرجال المجتمعين كانوا يأملون العفو من الأمير ، تحوَّلت النساء لبقايا رمم يتلمَّسن الرَّحمة من عيون رجالٍ تمرّسوا على الخنوع للبلاط .

عندما جاءت عيناى فى عينيها وهى ترفض التسوُّل ، اقتربت ، وسألتها : "مِن أين لكِ هذه العيون؟" لم ترد ، أخذتنى فى حضنها ، وسحبتنى خارج القصر لنشمّ الهواء النَّظيف .

"الطّابونة "

فى كلَّ عامٍ يمر يخطف "إمام" صاحب الطابونة أحد الأطفال الذين لم تتجاوز أعمارهم عشر سنوات ويرميه وسط المكن ليزفره كي يدور طوال العام دون توقف.

الحوارى تبحث عن الولد المخطوف فى كل الأزقّة والجوامع والحقول دون جدوى ، لن يصلوا لشيءٍ لأنَّ "إمام" يرتكب جريمته دون أن يعرف أيُّ شخصٍ اليوم الموعود لفرم الجثث .

يلبس ملابسه المزَّينة كلّ يومٍ جمعة ، يحلق ذقنه ويجوب بالشوارع ليختار فريسته ، دون أن يعلم أحد ما يدور بخاطره ، بعد أن يصلَّى الجمعة مع المئات من الناس ، يخرج مبتهجًا من المسجد ، يعطى للأطفال اللب والفول السودانى ، ويصافح الجميع دون أن يلمح أحد فى عينيه نية الخطف .

ثلاثون طفلاً غابوا عن بلدتنا ولم يُعرف أثرهم طوال السنين الماضية ، والخاطف يصلَّى بالجامع كلّ يوم ، يواسى أهالى المخطوفين ، ويبكى معهم ويودَّعهم بمقولته الشهيرة "يقطع من هنا ويخلف من هنا" وهو متأكدَّ بأنَّه لولا دماء أطفالهم لجاعوا وحُرموا من خبز طابونته العتيقة!!

حين توقَّف مكن الطابونة رغم اختفاء "ثناء" بنت "سهير" بتاع الفِجل منذ أسبوع ذُهِل "إمام" ، لم يفهم سرَّ ما حدث ، دخل الطابونة ، وسأل العمَّال : "هل دخل أحدكم حجرة المازوت ؟ هل شاهد أحدكم السيور المتوقفة من الخلف؟"

صمت العمّال مبحلقين فيه ، بحث بحجرات الطابونة ومخابئها عن سرَّ توقف الماكينة ولم يعرف السبب ، خرج من كل الحجرات والممرات السرية دون أن يفهم ما جرى ، فُوجئ بالأهالى يحيطون بالطابونة ، ويتهامسون مع العمَّال رافعين يد "ثناء" وخاتم أمَّها المعلَّق بأصبعها الأوسط يضئ الحارة ، اكتشف "إمام" سرَّ توقف المكن ، فالسُّيور التى أكلت رأس وجسم بنت سهير تركت اليد سليمة ، "الحاذق

دائمًا" لم يلمح اليد التى طارت لتختفى بغرفة الخزين ، خرجت رائحتها لتخلط بالعجين ، اكتشفها العمال ، أبلغوا أمَّ ثناء التى صرخت فتوقَّفت الطابونة عن العمل ، اكتشف النَّاس سرَّ اختفاء ثلاثين طفلٍ خلال الأعوام الماضية ، دون أن يعثروا على أثر واحدٍ منهم .

قرَّروا وضع "إمام" على السيور ؛ كى تنتهى الأسطورة ، حين أمسكوا به ولامست مؤخرته السّير صرخ ، رجعت لذاكرته صور الأطفال الثلاثين ، وهم يناشدونه ليعيدهم لأمَّهاتهم ويطالبونه بالأمل ، لكنَّ قلبه الخالى من المشاعر الراغب فى إنتاج الخبز للناس كان يقول لهم وهم يدخلون حجرة السيور ، بعد أن يضع المنديل المبلول بالبنج على فمهم : "سوف تذهبون إلى حدائق واسعة من أجل الجميع" .

لاحقته صرخات الأطفال الخافتة ، العيون المستغيثة وهى تجرى فى الحوارى الغريبة التى لم يشهدها قبل ذلك ، وجد نفسه بين مقطوراتٍ سريعةٍ بطرقٍ كبيرة، يتفادى الموت ببراعة ، ينظر للسّير القريب ، يرفسه بقدميه حتَّى لا يضعون رأسه عليه .

يصرخ ، ويقول: "أنتجتُ لكم الخبز طوال ثلاثين عامًا ، فكيف تضحوُّن بى؟! إنَّ أولادكم الثلاثين ماتوا لتأكلوا!!"

"السّرقة"

يتسلَّقون الباص المتَّجه إلى ميدان السَّيدة وإمبابة من ميدان رمسيس ، يتناولون تقليب وجوه الرَّكاب ، ويكتشفون بخبراتهم ما تحويه محافظهم وجيوبهم ، يختارون الأقل تركيزًا ، يعرفون من عيونهم تاريخ حياتهم وحاضرهم.

عُرِفوا فى عالم النشل بأسماء البشال والنبَّال وحماصة ، كان الثلاثة بارعين فى التقاط المحافظ وشقَّ الجيوب ، وتمشيط الضَّحية دون أن يحسُّ بهم أحد .

لم يعوق عملهم شرف كمسرى ، أو نَبَاهة مُخبر ، أو تركيز راكب ، خرجوا من الدوائر التى أحاطت بهم ببراعةٍ حسدهم عليها أهل الكار ، حينما يعودون آخر النهار على المقهى يطلبون القهوة السادة ، ويقتسمون فى ثقة رزق اليوم ، يُخرجون مصاريف المقهى بأمانةٍ لم يتعوَّدها الشَّرفاء .

رمقونى ، وأنا جالس بجوارهم بالمقهى مرتبكًا ، بحلقت عيونهم الثلاثة مرة واحدة إلى حقيبة اليد التى أحملها فرفعتُها إلى جوارى واحتضنتُها ، فَهِموا بذكائهم أنَّها تحتوى على كنوزٍ ثمينة ، اقترب أحدهم وطلب منِّى أن يشعل سيجارته ، قلت دون أن تهتزّ مشاعرى : "اتفضل" .

نظر بطرف عينه وهو ينحنى لحجر المعسّل المشتعل لحقيبتى ، وضعتها دون أن أدرى على حجرى وحضنتها ، عاد لمقعده رافعاً حاجبه لأصحابه ، وقال : "صعب المنال" ، وضعت الحقيبة بجوارى مرَّة أخرى ، ورأيت عيونهم تتفق على خطفها.

بلعوا الطعم ، النشالون الماهرون لا يغيَّرون مهنتهم أبدًا ، لكنَّ الحقيبة الممتلئة التى ادّعيت الحفاظ عليها ، أغرتهم ليغيروا مهنتهم للمرَّة الأولى فى حياتهم ويقرّروا الخطف .

حينما فهمت ما يجول بخاطرهم حاسبت القهوجى ، علَّقت حقيبتى بكتفى ، وخرجت لشارع باب البحر متَّجهًا لزِحام الفجّالة ، لمحتهم من بعيد وهم يسيرون ورائى، أشرت لصديقى الذى اتفقنا سويًا على الإمساك بهم ، استدعى أصدقاءه الأشاوس الذين يضعون حياتهم تحت أقدامهم ، شاهدتهم يملؤون الميدان ينتظرون إشارتى للإيقاع بهم .

وقفت فى الزَّحام حول بائعٍ متجوّلٍ ينادى على بضاعته من الأقلام والأمشاط ، ويصرخ "أى حاجة بنصف جنيه" ، مئات البشر أحاطوا بفرشته للاستحواذ على أجمل الهدايا الرخيصة ، قبل دخولى وسط الزَّحام اقترب منِّى أحدهم ليعوقنى ويشتِّت تفكيرى ، خبطنى بكوعه وقبل أن أتحرك ناحيته كانت الحقيبة المخطوفة قد طارت إلى يد زميله ، فُوجئ النَّاس بعشرات الشباب يحيطون بالنشالين الثلاثة الذين غيرَّوا مهنتهم ، وخطفوا الحقيبة دون أن يهابوا مشارطهم ومطاويهم التى فُتحت فى وجه الجميع .

كتَّف أصدقائى الأشاوس النشَّالين من أيديهم وأقدامهم وجرُّوهم خارج الميدان ، ركبنا الميكروباص الذى كان ينتظر لينقلنا لزريبة المواشى التى يملكها أحد الأشاوس ، عرفنا منهم ما الذى أجبرهم على تغيير مهنتهم التى برعوا فيها ، ولم يتمكّن أحد من الإمساك بهم طوال العشرين عامًا الماضية رغم عيون عشرات المخبرين والضّباط والقوَّادين والواشين!!

الطمع هبط عليهم حين لمحوا حقيبتى الممتلئة برزم المال ، أغشت عيونهم وتاهوا ، بدَّلوا مهنتهم ليرتاحوا للنَّهاية من ركوب الباص ، وملاحقة الركاب بعد اكتشاف أرواحهم وتمشيط جيوبهم .

اتفق الشباب الأشاوس معى على ملاحقة كلّ من يُغيّر مهنته لنحرمه منها للأبد ، فكان الحكم عليهم بقطع أصابع يديهم ؛ لأنهَّم لم يشكروا الرَّبّ على عطاياه ، كفروا بخلقه أخف وأجمل أصابع سرقت الكحل من العين طوال عشرين عامًا ، ولم يدر بها أحد .

صرخوا قائلين : "ارحمونا وسوف نعود لمهنتنا" ، ولكنَّ حكم الأشاوس الذى غيّر الدنيا لم يمتثل لتوسلهم وأمسك الشباب السكاكين ، قطّعوا أصابعهم الثلاثين ؛ ليحرموهم مهنة السرقة التى برعوا فيها .

"أنت وراءه"

قابلنى وشجَّ خدَّى ، وقال : "هات ما فى جيبك" .

قلت له : "سوف أعطيك كلَّ شىء ، لكن من أعطاك الجراءة لتمسك مطواة وترفعها فى وجهى؟!"

لم يمهلنى النظر فى عينيه ، قطع أذنى حتَّى لا أسمع ، تساقط الدَّم على ملابسى ، قلت له : "لا تخف سوف أعطيك كلَّ ما أملك ، ألا تعرفنى؟!"

شجَّ جبينى ، وقال : "أعطنى المال كي لا أقتلك" .

عينى كانت تبحث عنه ، لكنَّه بمهارةٍ تفادى الشعاع ، مزَّق يدى ، لم أكن أصدَّق أنه قاطع الطريق .

قلت له : "سأعطيك كلَّ شىء ، لكن من رئيسك ومعلمك ؟ أنسيت تدريبى لك بأن لا يجب أن تعض اليد التى قدَّمت لك الخير ؟!

شجَّ صدرى بسنَّ المطواة حتى لا يقتلنى ، وقال : "افتح جيبك وأعطنى المال" .

قلت : "سوف أعطيك كلَّ ما عندى ، ولكن من وراءك ؟ كيف تجرأت على خيانة أبيك وعمّك؟!!"

قال بأسى ، وهو يقطع أذنى الثانية : "أنت من علَّمنى الخيانة ، سأعمل لحسابى ، ليس هناك أحدٌ ورائى ، سوف أسرقك وأنال حرَّيتى ، هاتِ ما فى جيبك .

رمقت شعاع عينه يسرح بعيدًا ، اعترضته وأمسكت مطواته بيدى المجروحة وأدخلتها فى بطنه ، قلت له وهو يستغيث كى لا أقتله : "من وراءك؟ من أعطاك الجراءة على اعتراض طريقى وتهديدى ، والاستيلاء على ممتلكاتى؟!"

قال وهو يموت : "جبروتك وقوتك ، أفزعتنى فى الليلة الماضية ودربتنى على هزيمتك" .

قلت بأسى : رغم أنكَّ علَّمت وجهى بسكينتك ، لكنَّ أذنى المقطوعة سوف تسمع أنين الناس فى الطرقات ؛ لتعيد الخير لهم ويعرفون أنَّنى قتلت قاطع الطريق الذى تجرَّأ وواجه الموت .

حاولت الناس مُداواتى ، وطالبونّى بالذَّهاب للمصحَّة لأُشفى ، لكنَّنى أخرجت المطواة من بطنه ، ووضعتها فى قلبى لأشفى غليلى .

قال الناس : "لماذا تفعل ذلك؟ أنت قتلته وأخذت بثأرك" ، قلت : لا يهمُّ قتله ، المهم قتل من أنتجه" .

سالت الدَّماء من قلبى ، وأنا سعيدٌ بقتل من وراءه .

"الأمل"

فجأة وجدت نفسى أمام نهرٍ كبيرٍ ممتلئٍ بمياهٍ لونها أزرق ، سالت روحها على خدودى ، نبتت زهور حمراء وكبرت حتَّى أصبحت أشجارًا كبيرة ظلَّلت على النَّاس ومواشيهم فى حرَّ الصيف ، كنت أحسُّ نسيمها الرَّطب على جبينى .

غطَّت عيناى بالنوم تحت ظلَّ شجرة الزهور الحمراء وجدتهم يحيطون بالنهر ويشربون مياهه ، جفَّت الترع وماتت الأسماك واسودت الأرض ، ولم يتبقَّ إلا ظلّ الأشرار الذين يملأ الشوارع .

خرجت السَّحالى والثعابين لتملأ شقوق الأرض والترع ، كانت تبثُّ السّموم على الزرع الشيطانى فيكبر لينتج الشوك الذى ملأ الأرض ، لم يعد مكانٌ واحد لقدمٍ فى شوارع وأراضى البلدة إلا وامتلأ بأشجار الشوك التى نبتت ، وازدهرت على سموم الثعابين .

وجدت نفسى مرةً أخرى فى بلادٍ بعيدة راكبًا قطارًا لا تلمحه العين ، يفتح لراكبيه كلّ المشاهد بالمدن التى يزوروها دون أن يتوقَّف ، يُريهم كيف يستمتع الناس برحيق الحياة .

مرَّ على كلَّ مدن العالم ، لم يترك قرية إلا زارها ، شاهدنا على جدرانه الطّائرة ، كيف ينمو الحب ، فجأة نهرنى أحد المارة بقدميه فصحوت من نومى ، كان اللَّيل قد دخل وأظلمت الدنيا ، لكنَّ جزيرة النهر الملىء بالماء وأشجار الزهور حوَّلت الدنيا من حولى ، وعدتُ غير عابئٍ بالموت .

قمتُ مفزوعاً أبحث عن أهلى ، دخلت المدينة غير عابئٍ باليأس الذى كان يجرى ورائى .

وجدت البشر مكتوفى الأيدى بسلاسل وأقفال كبيرة ، كانت ضربة واحدة من سيفى البتَّار كفيلة بحل القيود .

مشـى الصـارخون ورائـى يسـاعدوننى فـى إطـلاق الحـب ، عنـد نـهايـة البلـدة وجدت المبانى ناصعة البياض والنساء تزيّنت بملابس فاتحة تظهر مفـاتنـهنَّ ، كُنَّ كملائكة ، جريت سريعًا نحو الترع لأتأكَّد من لـون المياه الأحمر ، حيَّرتنـا الزرقـة الفاتحة فى لون السماء .

النـهر امتلأ عن آخره بالسَّمك ، النَّاس المبتـهجة تلتقطـه بمهـارة وتشـويه علـى الشاطئ غير عابئة بالطين .

شيَّد الناس حجرات من الخوص حول النـهر والترع ، فرشوها بـالتراب النّـاعم واستحمّوا ، ناموا نومًا طويلاً ، كلَّما صحُوا يشوون السَّمك أمـام الحجرات الخـوص ، ملايين البشر تأكل من النهر ما لـذَّ وطـاب من الأسماك مـع ذلـك كانـت تزداد عددًا وحجمًا ، وتخرج من النـهر مبتسمة ليلتهمها النَّـاس فـى نشوةٍ لتذوق الطعم وشم رائحة الشواء .

صحوت من نومى آخر اليوم ، حكيت لأمَّى وإخوتى ما حدث ، قالوا إنَّه الخير الذى يملأ العالم .

"ظِلُّ الآلهة"

صنعوا مستطيلاً من الخشب ، ظلّلوا عليه بالورد والنقوش ، كتبوا عليه "ظل الله فى الأرض" أينما سِرتَ يقابلك ويصرخ فيك بهدوء ، وينطق كل الحروف ، مكوّنًا كلمة الأمل ، لتظلَّ تعمل دون كللٍ أو اهتمامٍ بناتج عملك .

فى السنين البعيدة التى أعقبت رفع تلك الأخشاب من الشوارع وجعلها الناس أماكن للتبول ، وكتبوا عليها "حمّامات للاغتسال والتطهّر" لكنهَّم رسموا بالميادين لوحاتٍ فنية مدهشة لنساء ورجال وأحداث وأماكن وأشجار لم تعد اليوم موجودة ، وكتبوا تحت اللّوحات "تراث الإنسانية الرخو" .

الشىء المذهل أنَّ المستطيل الخشبى المُظلَّل بالورد المكتوب على بابه "ظل الله فى الأرض" ظلَّ يسيطر على الشَّوارع رغم هدمه ، لأنَّ الفنانين رسموه على لوحاتٍ كبيرة ، ملؤوا بها الميادين ، وكتبوا تحتها "بيت الله القديم" .

أحاطت النَّاس لوحاتهم المبهرة محاولين تذكُّر روح الأجداد الآمنة حينما كانت تزور هذه البيوت .

المذيع الذى عشَّش داخل كل واحد فينا كان يقول : " إن بيوت الآلهة القديمة ، والمرسومة باللوحات والمعلقة بالشوارع والميادين هى آخر ما تبقَّى من زمن الكذب" .

"أينما سِرتَ تقابلك".

صرخ صوت المذيع بعد فاصلٍ موسيقىّ : هيَّا اذهبوا إلى المراعى مع الأغنام لتأكلوا نصيبكم من القمح ، كانت تلك الصّور التى ينقلها المِذياع تُذَكَّرنا بتاريخ الحارة القديمة التى لم يعد لها وجود فى ذاكرة البشر .

فـى يـومٍ صـحوت مـن نـومى بعـد أن عاصـرت الماضــى بأحداثــه وصـراعاتـه ، قررت أن أُعيد تلك الصور لذاكرتهم ، نزعت المِذياع من قلبى والصبية تحيطنى بالشوارع ، دست عليه بقدمى ، انتشر خبر حرق مذياع أحد الحيوانات بالشوارع ، أصدر القلب المحروق بالشارع ذبذباتٍ خلخلت ذاكرة النـاس ، أشعلت فى داخلهم مـن جديـدٍ الحنـين للامتنـان ، صـرخت فـى السَّـماء ، تـردَّد الصَّـدى ليعُيـد موجـات الذاكرة إلى البشر .

فُوجئ الأمن السرَّىّ للقبو الملكىّ بإلقـاء البشر لقلـوبهم ليسـتبدلوها بموسـيقى الصراخ ، ضاقت صدور الناس ، انسدَّت آذان الجميـع ، أغلقوا عيونـهم ، لـم يكـن هنـاك سِـوى الرُّكـام ، شمّوا رائحـة قهرهم فبكـوا سنين علـى الخديعـة التـى أهـدرت عمرهم .

لـم تعـد أنـوفهم تتحَّمـل الرائحــة ، ارتفـع صـوت الصـراخ عاليًـا ليحـرق صـور الآلهـة بالميـادين ، أشـعلوا النّـار فـى سـيارات القيـود ، اسـتعاد البشـر ذاكـرة الأمـل والتحدَّى.

"القدر"

تهرب السُّحب بالسماء ، تخرج المدافن روائح الزهور على الأموات ، يأكل النّاس بنهمٍ اللحوم المشوية من المحلات المفتوحة ليل نهار ، تجرى سيارات الإسعاف مسرعة بالشوارع لتطفئ الحرائق ، تتحوَّل أقسام البوليس إلى جحيمٍ عند العرض المسائىّ للمجرمين .

فى كلَّ يومٍ يجلس النَّاس أمام شاشات الكمبيوتر والتليفزيون والسينما يشاهدون عروض الأمانى ، يصيغون العلاقات الجديدة عبر الهواء ليغذُّوا مشاعرهم ، يلقى المزارعون ببذورهم فى الأرض لتنتج المحاصيل ، يصنع العمَّال علاقات عملٍ جديدة بإنتاجهم آلات تفرم الخامات والبشر ، يخرج اللصوص ليل نهار ؛ كى يسرقوا بعض الطعام والنقود ليظلُّوا أحياء.

تخرج الشمس لتعلن للجميع بداية النور ، تغادر النَّهار حزينة ليظهر القمر والنجوم ليُعلنوا بِدء السكينة والحب ، تمتلئ محطَّات القطارات والمطارات بالأهل والأقارب والأحباب ؛ ليودَّعوا الغرباء الراحلين والعائدين .

تمرُّ الحياة دون أن نعرف أنَّه هناك عند قمة الجبل ، يقف شامخًا ليعلن لكلَّ واحدٍ فينا نهاية الرَّحلة فى يومٍ لا يعرفه إلا هو .

بعد أن شاهد صديقى كلَّ هذه الصور تمرُّ أمام عينيه ، قرَّر فجأة أن يغادر المكان لِقمة الجبل الذى يجلس فيه ، ويواجهه بحقيقته .

جرت الناس من حوله وحامت حول الرزق ، فجأة وجد رأسه ترتفع ، علت قامته رُويدًا رُويدًا حتَّى تجاوزت الأبراج ، كان ينحنى حتَّى تمرُّ الطائرات التى ظهرت أمامه صغيرة الحجم ، ينظر من عينه إلى سطح الأرض البعيدة المملوءة بالبشر والحشرات فيرى الجميع ، لم يدهشه منظر النمل الصغير وهو يمشى على قدمه الكبيرة ، أسند يديه على الجبل فانهارت الحوارى والشوارع ، ظلَّ يمشى وسط

الناس مرتفع القامة ، يراهم جميعًا لكنَّهم أبدًا لم يطالعوا وجهه البعيد ، كيف يمكن لبشرٍ ظلَّت عيونهم خلال رحلة الحياة لا تتجاوز الحجرات وشاشات الكمبيوتر أن تشاهد القامات العالية التى اخترقت السّماء ، وصعدت فوق أعلى الجبال لترى الجميع كالنمل؟!

نتذكَّر حكاياته وسخريته منا بعد مغادرته ونضحك ، لأننَّا لم نفهم أبدًا سرَّ طموحه بالسّموّ ، مع ذلك وبعد عشر سنين حلَّ التعب عليه دون أن يرى وجه الحقيقة.

"العاهرة"

يخدش عملها الذى تحبُّه حياءها الذى تربَّت عليه ، لا تتذكَّر اليوم الذى قرَّرت فيه أن تكسب رزقها بعشق الرجال ، كانت تقف أمام الترابيزت ، تستفزُّ رجولتهم ، فيركعون تحت قدميها ويوافقون على دفع الثمن ، كانت تقول : "خمسمائة جنيه مقابل الساعة ، سوف آخذك إلى الفندق القريب ، تدفع لهم مائة جنيه وتعاشرنى ، لكنَّى أتقاضى مقدمًا ، يجب أن تلبس واقيًا ، لن تقبِّل فمى" .

بعد أن تُنهى ليلتها ، تذهب لشقَّتها التى استأجرتها بالقرب من الميدان ، تستحم وتأكل بعض الطعام ، تطمئنُّ على أمَّها وتنام ، كانوا يطلقون عليها بالمحلّ "الليدى" فهى التى تختار زبائنها ، تعرف أنهَّم يدفعون الكثير لها بعد أن تنتهى ساعتهم .

كانت سعيدة بعملها ، فهى البنت الوحيدة لأبٍ مات بالغربة وأمٍ مشلولة ، استطاعت أن تواجه هؤلاء الرَّجال كلّ يوم ، تختار أكثرهم عذوبة ونقودًا ، كانت فخورة بنفسها ؛ لأنهَّا لم تخطئ أبدًا الاختيار .

يمارس الرَّجال التى تختارهم معها الجنس بتدفُّقٍ تعرف كيف تفجِّره ، لم تخنها مشاعرها أبدًا ، أو تهرب منها أثناء معاشرتها ، فهى تعرف عملها جيدًا ، فهى التى تجلب السَّعادة والحب ، وتمتصُّ الحزن والاكتئاب ، إنَّ دورها مهمٌّ فى الحياة مثل الزارع والصَّياد والصَّانع ، إنهَّا هى التى تجعل الرَّجال يذهبون للعمل كلَّ صباحٍ مبتهجين ، ومقبلين على الدنيا .

حين دخل المحلَّ الفخم بالمدينة السَّاحرة التى لا يدخلها إلا من امتلأت خزائنهم بالأموال ، عرفت أنّه الفريسة التى يجب أن تخضعها اللَّيلة ، نظرت إليه ثمَّ بصقت على الأرض ، سارت من أمامه مختالة بنفسها وذهبت للحمام .

أثناء عودتها قطع طريقها ، وقال لها : "كم ثمنك؟" قالت : "لن تقدَّره" ، قال : "اطلبى ما تشائين" ، قالت : "قلبك" ، قال : "لن تقدَّريه" ، تركته وذهبت للبار ، وطلبت على غير عادتها كأس بيرة ، وأعطته ظهرها .

اقترب منها ، وقال : "سأدفع خمسين ألف جنيه" ، قالت : "أحتاج قلبك ؛ لينحنى أمامى ويركع ، ويعرف أنَّ الدنيا مليئة بالسَّعادة والحب" ، قال : "سأدفع مائة ألف" : قالت : "اغرب عنَّى من فضلك ، فلست لك" .

كتب لها شيكاً بنصف مليون جنيه ، ضحكت وقالت : "سأهجر الحانة ، وأعيش عبدة لك إذا أعطيتنى قلبك" ، قال : "إنَّه أغلى شىء عندى ، أُدير به ثروتى التى تُقدَّر بالمليارات" ، قالت : "أريد روحك وليس مالك" ، فجر الحانة بطلقات مسدّسه لرفض العاهرة قلبه الميت .

"المخنّث"

على جسرٍ طويل رأيته واقفاً يُحرَّض الفلاحين ، ويرشدهم عن الملاذ الأخير ، ينصحهم بالضجيج والسير مجتمعين ؛ ليصلوا لأهدافهم فى ريَّ الأرض وإنتاج الفاكهة .

كانت الناس تندهش من عيونه المكحلة والمملوءة حياة ، كان يفتح فمه ويضحك بشبقٍ فيسيل لعاب الرجال ويتمنُّوا معاشرته ولو ليلة واحدة ، ينزل من عليائه يسير بجوارهم ، كان جسمه الشفَّاف الناعم مصدر إلهام للجميع ، وتمنَّوا ملامسة أطرافه ؛ لينعموا بالحبَّ ولو لدقيقةٍ واحدة .

سار وسط البشر الكسالى الملتحفين بملابس ممزَّقة بفخر ، يهزُّ أردافه ويطلب منهم أن يعلنوا الرفض مرةً واحدة فى حياتهم ؛ كى تعيد الأرض إنبات البذور .

حين نظرت إليه ولم يلتفت ، علمت أنّه يرفضنى ، لكنَّى ظللت أطارد عيونه حتَّى استقر قلبه بنِنَّ عينى ، وجدته بالبراح يجرى خالعاً ملابسه فى الحمّامات والجميع يعاشره وهو سعيد ، يلقى على من يقابله الحب ، انحنى وطبطب علىَّ ولامس وجهى بأصابعه الرقيقة ، وقال : "عليك السّلام" .

يسخر منه الفلاحون ، ويتساءلون كيف لرجلٍ يلبس قمصانًا للنوم ملوَّنة ، وشراب شيفون نسائى فى قدميه أن ينشر الأمل والحب فى البرارى الواسعة ؟!!

ملأت حكايته المقاهى ، تهامس البشر على إبداعاته فى معاشرة الرجال وامتطائهم ، يعلم النَّاس فى الخلاء كيفية الاستمتاع ، ينام بجوارك ، يمسك قضيبك ، ثمَّ يلحس بطنك ويفرك مؤخرتك ، حتَّى تصل يديه لفتحة شرجك ، ثمَّ يضغط على قضيبك النافر ويضع فمك بين شفتيه ، ويضغط على فتحة شرجك بهدوء حتَّى تقذف بمؤخرته ، كانت النساء تتمنَّى أن تشاهد طلعته البهية وهو

يجمع بين قلبه روح الذكورة والأنوثة ، كان يقول : "بداخلكم الحبَّ لا تترددَّوا فى الاستمتاع بالحياة .. ليس هناك إبداع أجمل من أعضائنا التى خلقها الله لِننعم باستخدامها" .

ناقشته النِّساء لفهم متعه المعاشرة ، يأخذهنَّ هناك خلف الجرن ، يضع رحيق الحب والحياة على صدورهنَّ ، وفى قلوبهنَّ ، تلمس أطراف أصابعه أعلى فروجهنَّ وبين أفخاذهنَّ ، يلحس بهدوءٍ تحت إبطهنَّ ، يفرك صدورهنَّ ، يمسك بيديه الاثنتين شعورهنَّ ، ويرمى مرَّةً واحدة رحيق النشّوة فى فرجهنَّ ، فيصرخون ويقولون: "لا تتركنا أبدًا" ، كان جسده النأّعم مصدر إلهامٍ لكلّ السَّيدات فى بلدتنا البعيدة .

حين دوّت صرختة عالية فى السَّماء ، ليمنع الله الظلم والأذى عن البشر استجابت السّماء ، فأمطرت القمح والأرز والأمان ، ونام النَّاس مئات السنين مستمتعين بوجه المخنَّث .

"القرين"

من يرغب فى قتلى فليتفقّد أثرى ويراقب تحرّكاتى ويسمع أنين صوتى ؛ ليصل لنقطة النهاية ويقرَّر التخلُّص منِّى ، حين تنوى الضغط على الزِّناد لتقتلنى سوف آخذ روحك ، مع ذلك فدائمًا أشتاق لمن يتصوَّر أنَّ بإمكانه التحدَّى ودفع الثمن ، إنَّها اللحظة التى أنتظرها لأنظِّف العالم من الغاضبين .

يقيم فى ارواحنا ، ويراقبنا ليختار نقطة النهاية ، حبسنا أنفسنا فى جلودنا وحاولنا خداعه ، كنَّا نلبس الملابس الفاتحة ونحلق ذقوننا لاستقباله ، الفتيات تتفنَّن فى وضع المساحيق على وجوههنَّ ، النَّساء تملأ المطابخ بأشهى المأكولات ، الجميع كان يهرب منه ، ويحاول أن يطمئنه بأننّا جميعًا رفقاء طيبون ومحبُّون للحياة ، هو العالم بكلَّ الأسرار يعلم أننَّا نخدعه ، ينتظر لحظة النهاية ليكسرنا ويسرق النَّوم من عيوننا ، حين لمحنى وأنا أجرى وأقفز وأنهض وأغطس بالمياه وألعب الكرة وأرقص وأمارس الحبَّ والنشوة تملؤنى ، عرف أننَّى المراوغ ، جهَّز كل آلاته المرعبة حتَّى يقتلنى فى غفلة .

استطعت أن أجلس معه أناقشه وأتلمَّس منه البركة ، أحزن لفراقه أو لوداعه أو للقائه ، لم يعرف حقيقة مشاعرى ، كان يحاول أن يوازن بين إحساسى بالحياة وقبولى بالموت ، فيعلم أنَّ النهاية لم تحن .

فى يومٍ قررّت أن أستريح فاستكملت السَّهر ، قال لى : "لا تخجل ، فالنوم يلطِّف العالم ويجعل الأحلام المستحيلة قريبة منك ، لا تسهر واذهب لسريرك واسترح".

كنت قد نويت على قتله ، فعرف أننَّى قبلت دفع الثمن ، قلت له : "سوف أحاول" ، تمرمغت بسريرى لمدة ساعة أعاشر كل النَّساء والفتيات اللاتى شاهدتهنَّ عينى ومع ذلك لم يحضر النوم ، استسمحته أن أخرج للشَّارع لعلَّ الرقص يريحنى وأنام .

تعب من مراقبتى لمدة ثلاثة أيامٍ متواصلة دون أن تغفل عينه ، أمام رغبتى الملحَّة وافق على طلبى ، لبست ملابسى كاملة وانتعلت شرابى الجديد وصندلى القديم وخرجت للشوارع ، لمحت من بعيدٍ زغاريد لنساءٍ تُغرِّد للَّيل ، قلت : "وجدت فريستى" ، كانت امرأةً تتوسَّط الميدان وتضع ماكينة صغيرة بجوارها تُصدر موسيقى عالية الصوت لم أسمعها من قبل ، اقتربت منها ، انتشلتنى لأنزل حلبة الرقص خلف الرصيف ، ظلَّت الأغانى والموسيقى ترتفع حتَّى اطمأننت إلى صمته ، فأخرجت مسدَّسى ووضعت فيه الطلقات وجهزته للقذف ، فُوجئت به يقف أمامى يترنَّح فى المتاهة التى أدخلته فيها ، حين ازداد صوت الموسيقى وسما على كل المشاهد فى العالم ، تحوَّلت الأرض لجنة ، وجدته صغيرًا تحت قدمى كعقلة الإصبع ، رقصت حوله حتَّى سقط على الأرض ، ودون طلقة رصاصٍ واحدة ، دهسته بلا رحمة .

"السُّقوط"

طرقاتها المتسارعة جعلتنى أُغلق كتبى وأوراقى ، وأتَّجه ناحية الصالة لأفتح الباب ، أسعدتنى طلعتها البهية وهى تضحك ، أخرسنى صوتها وهى تعتذر بأنها لم تكن تقصد شقَّتى .

عُدت مذعورًا لأوراقى أبحث عن المحبوب الذي يعشق النَّاس والنُّور ويجرى خلف الرزق مندهشاً من قدرة الخالق على إبداع نعمٍ كثيرة ، فتحت كتابى مرة أخرى لأتذكره وهو يجاورنى مبتهجًا وممتنًا على الناس والدنيا ، كان يصرخ فى الفضاء ، ويقول : "يا ربَّ سترك علينا" ، ثمَّ يغنى ما يحفظه وما لا يحفظه من الأغانى المبهجة التى أعطت لحياته طعم الأمان والرِّضا ، لكنَّ عبثًا لم أجد أى ورقة ضمن أوراقى التى سجَّلتها ، صرخت فى نفسى : "أين ذهب ؟"

دائم الشُّكر على النِّعم ، مقولته المشهورة لكلِّ السعرانين : "احمدوا ربنا" كفيلة بأن تجعلكم ترتضون الحياة ، وترغبون فى استكمال السير نحو الرزق ، وتتركون الشرَّ لأصحابه ، وتعودوا بشرًا .

قلَّبت أوراقى الكثيرة ، لعنت السَّيدة التى أزعجتنى منذ دقائق ، ودقَّت الباب لترينى وجهها المبهج ، وتحرمنى من المحبوب الذى كنت أسجَّل ضحكته وبهجته .

تركت حجرتى ، خرجت للشارع كى أراه وأسأل عنه المارّة ، رجلاً شبيهاً له يجلس وسّط الناس ، اقتربت منه وقبل أن أقبَّل يديه ، وجدته يصرخ حزينًا ، يعلم الناس الحسرة ، ويقول : "عوضى على الله" ، فيرد الناس باكين : "صاحب العوض موجود" ، يحكى لهم عن اليأس ، ويقول : "الفشل لا يهم ، الفاشل يمكنه أن ينجح ، لكنَّ اليأس معناه الموت ، وأنتم أصبحتم فى عِداد الموتى" .

الناس مندهشين من حوله والدموع مـلأت ملابسـهم ، فكيف يمكن أن يضـج قلب إنسان بكلَّ هذا الكمَّ من السواد ويظلّ حيـاً؟! حينمـا سـألتهم : "أليس هذا هو المحبوب؟! أتلك أمسياته الرائعة؟!" ضحكوا ، وقالوا : "عمَّن تتحدث؟"

اقتربت منـه كانـت نفس ملامحـه ، نفس ملابسـه ، لكنَّ صوته كـان حزينًـا ، نظرت خلفى طالعنى وجه المرأة الضاحك التى دقَّت علىَّ الباب منذ دقائق وجعلتنـى أفقده ، سألت عن معنـى البيـوت السـعيدة ، نظرت فـى وجهـى واكتشـفتُ خـديعتى ، فاعتذرت ورحلت للأبد .

اختفـى الجمـع الـذى يتوسَّطه المحبوب ، فانحنيت بعيدًا عن الشـارع وذهبت للمقهى ، المِذياع كان يُعلن سقوط الأقنعة فى شوارع البلاد ، قال أحد الجالسين : "إنـهم يضحكون علينا ، الأقنعة لا تسقط ، ولكنَّها تتبدَّل" .

ارتفعت أصـوات النَّسـاء والرَّجـال والأطفـال فـى الشـارع ، وهـم يـهتفـون لترحـل الحسرة ويعود الأمل .

قالت امرأةُ عارية الرَّأس والصّدر ، وممتلئة قوةً وأنوثة : "إنَّـه اليوم الأخير لـه فى البلاد ، لن نعود إلى ديارنا إلاّ إذا رحل بلا رجعة" .

زحفت قدمى نحو الحشد الهائـل بالشـارع والتحمت فيهم ، وجدت نفسـى دون أن أدرى أهتف بسقوط الأقنعة .

"الهزيمة "

مرت سنون طويلة لا أتذكَّرها قبل أن يبنى قصره العالى على أرضنا ، كان يُخرج لسانه الطويل وجيوبه المملوءة بالمال الملون ليعَّيرنى ، أنظر لنفسى وأقول : "لا يهم أنَّ الله وهبه الرزق ، ولن أحقد عليه رغم أنَّ الغل ملأ عيونه" ، من كان يتصوَّر أن يجاور منزلى ملكًا أعطاه الله كلَّ شئ ، الزوجة الجميلة ، الأولاد الأصحاء ، الحدائق تلتف حول حجراتهم فى قصرهم العالى؟!

لم نسمع أبدًا سِوى الضَّحكات تخرج من وراء الأسوار ، حين يرانى صاحب القصر ، وأنا ملقى وأولادى بجوار السُّور فى ركام وقمامة المدينة ينظر إلىَّ بحسد!

تصحو زوجتى من النَّوم تلقى جردل الماء على وجوهنا لتُوقظنى وأولادى الخمسة ، لم نكن نجد مكاناً نتبوَّل فيه إلا بجوار سور القصر وأمام حجرتنا المملوءة بالقمامة والملابس المهترئة التى جمعناها من حوارى المدينة الممزوجة بروائح كريهة ، جعلت زوجتى تصحو من نومها تسبُّ الخالق والزَّمن والمكان الذى حرمها الحياة الرَّغدة الهنية ، وتصرخ بالسَّماء : "يا ربَّ أنا واحدة ست زى زوجة صاحب القصر!"

أولادى يبدؤون يومهم بالصّراخ ، يمسك الأكبر رقبة الأصغر لأنَّه أكل حبة الفول الوحيدة بالطبق ، ولم يتمكنَّ من اقتسامها معه!!

أُمسك سكَّينى ، وأجرى وراءهم ليخرجوا من غرفة الملابس المهترئة ؛ لأغُطَّ فى النوم ، مع ذلك حين يركب عربته من بعيد هو وأولاده ممتلئين هدوءًا وحبًا كانوا ينظرون إلينا بحسد .

وفى يومٍ لم يحدّده ، نزل من سيارته الفخمة ، ووقف أمامى يرمقنى ، قلت: "ماذا تريد؟ لن نترك المكان ، وُلِدنا هنا وعاش أجدادنا على هذه الأرض ، أنتَ الذى جئت وبنيت قصرك خلف حجرتنا ، لن نترك لك الأرض" .

رمقنــى بتكبُّـرٍ ، وقــال : "ســوف أعطيـك المــال الكثيـر ، أرجـوك اتـرك مقلـب القمامة ؛ لننظفه من روائحكم الكريهة" .

قلت بتحدٍ : "لو كنت تستطيع طردى ما بقيت كلّ هذا الوقت ، أنتَ ضعيفٌ رغم كلّ ما تملك" .

حـاول كلابـه منـع لسـانى السَّليط مـن الكـلام ، لكنَّ نظرتـى المتحدَّيـة أمـرتهم بالمكوث مكانـهم لمنازلة الأمير .

فى اللحظة التـى قرَّر فيهـا أن يهـاجمنى كـان البرد القـارس ينتشر فـى أرجـاء جسمى ، كانت أسنانى تصطكُّ دون أن أدرى سبب ذلك .

فجأة خبطنى علـى رأسـى بعصاته الغليظـة فوقعت علـى الأرض ، حين نظـرت إليه وأنا مُلقىً تحت قدميـه وهو يضحك مـن ضـعفى ، ويقـول فـى اسـتهتارٍ لكلابـه والبشـر المجتمعين : "سـقط مـن ضـربةٍ واحـدة" ، وصـرخ : "أحِرقـوا العشَّـة والمـرأة والأطفال!" نظر بغطرسةٍ للجمع الكبير ، وقال : "لم تسـتغرق هزيمتـه دقيقـةً واحـدةً" .

قفزت منتحرًا ، وقطعت رقبته .

"الرّفض"

بحلق الجمع الكبير فيه دون أن يفهم من خطبته أىَّ معنىً ، حين انتهى من حديثه ، ظهر الغلُّ وانهارت المشاعر ، خرجت بعيدًا لاستنشاق الهواء النَّظيف ، ظلَّت كلماته الأخيرة تتردَّد فى الصّدى "الموت بديلاً عنك" .

من الذى زرع كلّ هذا الغضب كى أتمنىَّ قتله قبل انتهاء خطبته؟! عدتُ من طيرانى للموقعة التى دارت فى عقلى ، سوف أقذفه وهو يصرخ ؛ ليخرَّ صريعًا فى الميدان يلتمس الرحمة من الجميع ، منظره وهو مُلقى إثر طعنتى لا يفارق عينى ، فأسرعت نحو السَّاحة لألحق به .

قال كلمته الأخيرة بتشفٍ : "وُلِدُت شقيًا قويًا ، كنت أحتاج أن أقتل فيكم البراءة لأُظْهر بطشى ، لكنَّكم أبدًا لم ترفضوا ، كنتم سعداء لقوَّتى ، وكنت حزيناً لضعفكم" .

مرَّت سحب وزوابع قبل أن أقترب من عينيه ، استدعيت كلَّ قوتى وأدخلت أصابعى الاثنين فى عينيه ، فُوجئت بالطُّيور تُحيط بى ، وتُمِدَّنى بالقوة التى جعلتنى كالمارد لأطيح بجنوده ، سقطت السُّقوف والجدران بقبضة قوية من يدى .

أصرَّ رغم إلقائه على الأرض وسّط الميدان على إكمال خطبته ؛ ليعلن خيبته وفشله ، لكنَّ الزمن الذى توقَّف برهة ، أدار الدّفه فتحوَّلت المركب للاتجاه المعاكس ، تمكنَّ الناس من القبض عليه وحبسه .

هاجت الطيور وألقت بأطنانٍ من الحب فوق الجميع ، انفجر الجمع ولاحقوا عساكره ودفنوهم فى الأنقاض ، أحنوا رؤوسهم المذلولة لتشرب من خيبة أميرهم المقتول ، لكنّ قلبى لم يطاوعنى على الرَّحيل منتصرًا وحدى ، عدت لأهلى كى أبلغهم بالنصر .

وجدتهم يمتلئون حزناً ، وقالوا : "كيف ستترك كلَّ هذه التَّركة وتسافر؟!!" حاولوا أن يمنعوا رحيلى .

قلت لهم : "لا يهمُّ الفشل ، اخلعوا الحزن وابتهجوا" ، قالوا : "المجرمون سيزورننا ليلاً ، ويسرقون طعامنا" .

قال أخى : "البوم سينعق فى السَّماء ، ويُخِيف أطفالنا" ، قلت : "تحتاجون لقلبٍ نابضٍ ، ابحثوا عنه فى مشاعركم لينفجر بالحياة" .

قالوا : "هناك التزامات وديون وأنت لا تفهم شيئًا ، أولادنا يحتاجون العلاج ، نساؤنا يحتجن الحب والملابس وراحة البال والنَّميمة" ، الغيرة أكلت قلوب الجميع حين شاهدونى أمتطى حصانى الفضَّى ، وأطير وحدى مُحاطاً بالعصافير .

قال أحدهم : "سأترك الأرض وأطير خلف الأشجار" ، لم يسمعه أحد ، ترك حقيبة الالتزام ، وانطلق خلفى .

وجدوا أنفسهم فُرادى بعد سقوط المدينة ، امتطوا أجنحتهم وحاولوا الطيران ، كان بعضهم يقع ، كثيرون نجحوا ، فى نهاية اليوم تحوَّل الجميع لطيورٍ مغرَّدة حطَّت على الأشجار بألوانها الزَّاهية ، استحمّوا فى نهر العطر ، وتراقصوا على موسيقى الأمل ورددوا مع اليمام أغانى الحب.

عُمان – بانكوك– الورَّاق

٢٠٠٩–٢٠١٠



يمارس الرّجال التى تختارهم معها الجنس بتدفق
تعرف كيف تفجّره ، لم تخنها أبداً مشاعرها ، أو
تهرب منها أثناء معاشرتها فهى تعرف عملها
جيداً ، فهى تجلب السعادة والحب ، تمتص الحزن
والاكتئاب من الأرواح ، إنّ دورها مهم فى الحياة
مثل الزارع والصياد ، والصانع ، إنها هى التى
تجعل الرجال يذهبون للعمل كل صباح مبتهجين
، ومقبلين على الدنيا!! .



غلاف : مصطفى نوبي